

كتاب الهلال



أرض الأحلام

سلسلة
ثقافية
شهرية

للدكتور زكي نجيب محمود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILA

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة: أمينة السعيد

سكرتير التحرير: عايد عياد

المشرف الفني: جمال قطب

العدد ٣١٧ - جمادى الأولى ١٣٩٧ - مايو ١٩٧٧

No. 317 — Mai 1977

مركز الإدارة

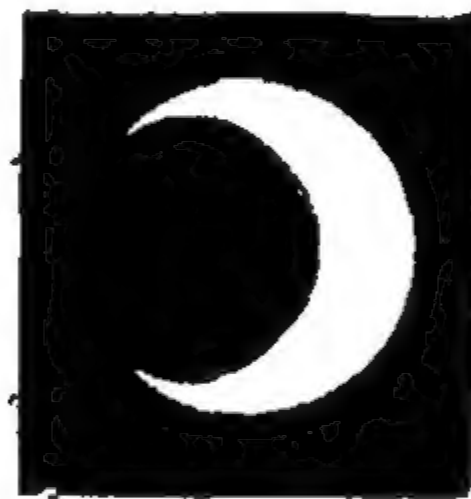
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي: « ١٢ علدا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى ١٥٠ قرشا صاغاً - فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ جك - والقيمة تسد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحواله بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابلاً للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

**الغلاف بريشة
الفنانة تماضر**

الدكتور زكي نجيب محمود

أرض الأعلام

دار الهلال

تصديـر

الكتب كالنـاس تتفاوت حظوظها ، ولقد كان هذا الكتاب الصغير من أوفرها حظا ، صدر أول ما صدر في أواخر الثلاثينيات ، ففوجئت به وقد ظفر بجائزة التفوق الأدبي ، وهى جائزة كانت رصدها يومئذ وزارة المعارف ، ووزيرها المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل ، ثم مضت عشرة أعوام أو يزيد قليلا ، وقامت ثورتنا المباركة سنة ١٩٥٢ ، فلم ألبث أن جاءتني الدعوة من « كتب للجميع » بأن تتولى نشره فى طبعة شعبية ، على أن أحذف ما يقرب من نصفه ليصغر حجمه ويصبح صالحا للتداول الرخيص ، فحذفت منه ثلاثة فصول طوال ، كان أحدها عن « الجمهوروية » لأفلاطون ، وكان الثانى هو « المدينة الفاضلة » للفارابى ، وكان الثالث « أطلنطس الجديدة » لفرانسس بيكون ، وطبع منه عدة ألوف لتنفسد بعد فترة وجيزة ، وهى هى ذى « دار الهلال » تتفضل بدعوة كريمة أن تتولى نشره فى صورته الموجزة هذه ، حلقة من سلسلة « كتاب الهلال » ، ففعل

قارئه أن يجد فيه من متعة الفكر والخيال ، ما وجدته
عند كتابته .

وبالله التوفيق .

زكى نجيب محمود

مارس ١٩٧٧

مقدمة

عندما يضيق الإنسان ذرعا بالظروف المحيطة به ، ثم يعجز عن تغييرها على النحو الذى يرتضيه ، فانه يسترسل فى أحلامه ، ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه أن يظفر به فى عالم الواقع

وليس كل انسان قادرا على أن يضيق ذرعا بما يحيط به من أسباب الشقاء والبؤس ! تلك عجيبة تستوقف النظر فى طبيعة البشر ، فقد ترى الناس ألوا ألوا ، قد حرمتهم هذه الدنيا كل مقومات الحياة الأولية ، فلا غذاء ، ولا رداء ، ولا مأوى ، وهم مع ذلك لا يشعرون بما أصابهم من حرمان ، كأنما عميت أبصارهم فلا ترى ، وصمت آذانهم ، فلا تسمع ، وتبليت جلودهم فلا تحس !

وهكذا . . . يظل المكدبون على عذابهم ، فلا شكاة ولا انين ، حاسبين ان ما أصابهم به الدنيا من ألوان الهموم وغلظة العيش هو الوضع الطبيعى للأمر ، فهكذا خلقت لهم الحياة ، وهكذا خلقوا لها ، فليس لهم - اذن - أن يضيقوا ذرعا بها

لكن الله لا يهمل عباده أبد الأبدى ، فيقيض

لهم حينئذ بعد حين نفرا منهم ، لا يجيئون على ما هم فيه من عمى وصمم وبلادة احساس . . يقيض لهم نفرا منهم تكون لهم الاعين التي ترى أسباب البؤس ، والآذان التي تسمع أنين المتألمين ، والجلود التي تحس لذعات العذاب ، فتكون لهم القدرة على التبرم بما حولهم ، والسخط على ما يحيط بهم ، بالعمل حينئذ ، وبالقول أحيانا .

وغالبا ما يكون الأدباء أصحاب الحس المرهف في طبيعة الشائرين ، لأنهم عادة أول من يدرك النقص والفساد ، فانظر مثلا الى الثورة الفرنسية ، تجد طلائعها هم رجال من حملة الاقلام ، مثل روسو ، وفولتير . . لأنه يكفيك أن تفتح أعين الناس وآذانهم ليراوا ما حولهم ويسمعوا ، لتكون بعد ذلك على يقين من اصلاح فعلى يأتي بعد حين قصير أو طويل

ولهؤلاء الأدباء - اذا كانوا من الطراز الأول - طريقتهم في تنبيه الناس الى أوجه النقص في حياتهم فهم لا يقدمون أبحاثا علمية في الاقتصاد ، والاجتماع وما اليهم ، بل هم يرسمون صورة من شأنها أن تنبه الفافل وتثير الساكن

وهذا الكتاب الذي أقدمه للقراء اليوم . . يحمل نماذج فريدة من أسلوب الادباء في الدعوة الى الاصلاح ، اذ أقدم فيه خلاصات لكتب هي من أروع ما عرفتة آداب العالم في هذا السبيل

فهذا « مور » في كتابه « بوتوبيا » برحل بك رحلة الى أرض خلقها خاله خلقا ، ليعرض عليك هناك شعبا عرف كيف يعيش سعيدا ،

فلا حروب تفتك بأبنائه ، ولا ملكية تشعل في
النفوس نيران الجشع ، ولا جمود يحولهم دون اصلاح
انفسهم ، ولا استبداد عند الحاكمين ، ولا ارهاق
للعمال ، ولا امتياز لطبقات الناس بعضهم على
بعض ، ولا مرض يضعع الابدان

وهذا « صموئيل بتلر » في كتابه « ارون »
يرحل بك رحلة اخرى الى ارض خيالية اخرى ،
ليعرض عليك هناك شعبا آخر عرف ايضا كيف
يعيش سعيدا صحيحا معافى . . . الا ان « بتلر »
في كتابه هذا قد اصطنع أسلوب التهكم الساخر
المر بنا ، وبمجتمعنا الذي نعيش فيه ، الى درجة
قد تخدع القارئ عن قصده الحقيقي ، فلا بد
من العناية عند قراءته

وهذا « وليم مورس » في كتابه « أبناء الارض
التي لا وجود لها » يحدثك عن شعب سعيد ،
ليضع أمامك - هو الآخر - نموذجا جديدا للحياة
الاجتماعية ، كيف ينبغي ان ينتظم بناؤها حتى يعيش
الناس في بحبوحة ، ويرأوا من هذا البلاء
المحيط بهم في المجتمع الراهن القائم ، ومما يسترعى
الانتباه بصفة خاصة مهاجمته للملكية الفردية
التي يطفى بها أصحابها على الضعفاء المعوزين

ثم هذا « ه . ج . ولز » في كتابه « يوتونيا
حديثه » يبشر كذلك - كزملائه - بحياة اشتراكية
لا تعرف الفوارق بين الافراد ولا بين الامم : انه يريد
مدنية واحدة عالمية ، ولغة واحدة وحياة
تستفيد بمخترعات العلم الحديث ، ويريد للناس
حرية الحب ، وتعاون العلماء في الجامعات ،

واشتراكية الارض ، وأن يكون لكل انسان حصة
أدنى من العيش

ولو أحس القارئ بعد فراغه من قراءة هذا
الكتاب بشيء من الضيق بما نحن فيه من عيش
سقيم شقي بائس ، ثم أحس مع ذلك برغبة في
التغيير والاصلاح على نحو اشتراكي يعرف
للأفراد أقدارهم ، ويترك لهم حق حرياتهم ، ويحطم
القواصل البغيضة بين الناس . . . لو أحس
القارئ بشيء من هذا بعد فراغه من قراءة الكتاب ،
تحقق لى الهدف الذى قصدت اليه

والله ولى التوفيق

زكى نجيب محمود

القاهرة فى صيف ١٩٣٩



● نبذة عن حياة توماس مور :

ولد توماس مور في لندن في اليوم السابع من فبراير عام ١٤٧٨ ، من أسرة لم تمتاز بجاهها العريض ، ولكنها ملأت الأفواه والأسماع بحسن الأحذوثة وكريم الخلال

كان أبوه قاضيا ، وأراد أن يأخذ ابنه بدراسة القانون فأرسله إلى جامعة أكسفورد ، حيث أبدى من علائم الذكاء واستقامة الخلق ما أنطق الألسنة بالثناء عليه ، حتى قال أحد رعااته :

* Utopia هذه الكلمة مأخوذة من مقاطع يونانية قديمة ، ومعناها « البلد الذي لا وجود له » ولكنها اكتسبت في العصر الحديث معنى جديدا هو « المدينة المثلى » .

« ان هذا الصبي سيتمخض عن رجل ممتاز » .

وقد كانت لآبيه خطة صارمة في تنشئة ابنه على الجد ، اذ كان من رايه ان أشبه ما يحفز النفس على الفضيلة هو منع وسائل الاغراء ، ولذا لم يكن يرسل لابنه من المال الا قدرا ضئيلا ، حتى روى عنه انه أثناء اقامته بأكسفورد لم يكن يستطيع ان يصلح حذاءه دون ان يرجع الى مشورة آبيه . ويقول « مور » مشيرا الى ذلك واثره في تربيته الخلقية : « من أجل هذا ، لم أنغمس في الملاذ العابثة ، واللهو الضار ، ولم أكن أدري معنى الترف ، ولا أعلم كيف أنفق المال في أوجه السوء ، وملخص حياتي المدرسية اني لم أكن أحب وأفكر الا في دروسي »

تخرج « مور » في تلك الجامعة ، فاشتغل محاميا ، فمحاضرا في القانون .. ولعل أقوى ما أثر في مجرى حياته بعدئذ شخصيتان بارزتان في عصره شاعت له الصدفة ان يلتقي بهما فصاغا له حياته في قلبها المعروف ، وأقصد بهما « أرزم » و « كولت » وهما من أعلام الاصلاح الخالدين .. ولقد أعجب « أرزم » بمور أعجابا عظيما ، حتى قال عنه فيما قال :

« متى أنجبت الطبيعة رجلا أرق وأعز وأمرح من توماس مور ؟ »

ولما بلغ « مور » السادسة والعشرين من عمره انتخب عضوا في البرلمان الذي عقده هنري السابع عام ١٥٠٤ ، ولكنه لم يلبث أن تعرض لسخط الملك وغضبه ، وذلك حين طالب هنري بزيادة الضرائب ليجمع قدرا من المال ينفقه على زواج ابنته من ملك اسكتلنده ، فتصدى له « مور » دون الأعضاء

جميعها ، وكان من أثر حملته أن اكتفى الملك لنفقات
الزواج بثلاثة عشر ألفا من الجنيهات ، بعد أن كان
يطلب بثلاثين ألفا .

ولكن الملك أسرها له في نفسه ، وأخذ يتربص به
الدوائر ، حتى اضطره أن يتنحى عن النيابة وما إليها
من الشئون العامة ، وما زال يتبعه بنقمتيه ، فلم
يجد « مور » بدا من الهرب ، فما أن أخذ يعد العدة
لذلك حتى مات الملك هنري سنة ١٥٠٩

تولى الملك هنري الثامن ، فأخذ نجم « مور » في
الصعود ، فعين نائبا لعمدة لندن ، وهو منصب
من أعظم مناصب الدولة إذ ذاك ، واستأنف المحاماة
وذاع اسمه ، فكثر ربحه ، على الرغم من كرهه للمال .

نعم ذاع اسمه بين التجار ، وأصحاب الأعمال ،
ذيوها عظيم ، منذ عارض الملك في زيادة الضريبة ،
حتى ألح هؤلاء على هنري الثامن أن يبعث به سفيراً
إلى هولنده ، ليفض ما كان قائماً بين الدولتين من
خلاف ، ولقد نشأت فكرة اليوتوبيا في ذهنه وهو
في تلك السفارة بين البلدين

وتبين هنري الثامن في « توماس مور » القدرة
والنبوغ ، فسعى سعيًا حثيثاً إلى ضمّه إلى
جاشيته ليفيد من حكمته ، غير أن « مور » كان
يقابل ذلك بالرفض . وسترى في كتابه أنه غير على
لسان بطل القصة « هتلوداي » عن مقتله الشديد لتلك
المناصب .

ولكن هنري الثامن مضى في الحاحه ، حتى ظفر
به عام ١٥١٨ ، عضواً في مجلس البلاط ، بل أقرب

الأعضاء إلى قلب الملك ، بحيث أخذ يلأزمه ملازمة لا تكاد تنفصل ، فإذا جد الجد كان رأى « مور » نافذا حاسما ، وإذا ضاق صدر الملك كان حديث « مور » هو أقرب وسائل السلوى وأنجعها . وما زال كذلك يعلو في مناصب القصر ، حتى عينه الملك كبيرا لأمنائه عام ١٥٢٩ ، بدل « ولزى » الذى هوى من ذروته لفشله فى التوفيق بين البابا وهنرى الثامن ، حين أراد هذا أن يستصدر أمرا بابويا بإلغاء زواجه من كاترين .

غير أن « مور » لم يكد يتولى منصبه ذاك حتى صارح الملك بأنه لا يوافق على إلغاء ذلك الزواج ولا يسعى إليه ، فنجاه هنرى ومضى فى سبيله دون أن يلجأ إليه .

اشتد النزاع بين البابا ، وهنرى الثامن ، فلم يأت عام ١٥٣١ ، حتى أعلن هنرى الثامن انه « حامى الكنيسة الانجليزية ورجالها ، وانه رئيسها الأعلى » ، فلم يسع « مور » إلا ان يستقيل من منصبه . ونفذ هنرى مشيئته وتزوج من « آن بولين » فقرر البابا حرمانه من الكنيسة ولم يكن بعد ذلك بد من فصم العلاقة بين إنجلترا وروما .

وما جاء عام ١٥٣٤ حتى أعد هنرى الثامن قانونا لوراثة العرش يحصر ولاية العهد فى أبنائه من زوجته الجديدة « آن بولين » وطلب الى كبار رجال الدولة أن يحلفوا يمين الاخلاص لذلك القانون ، ولكنها يمين صيغت عبارتها بحيث تتضمن الاعتراف بشرعية زواج الملك من « آن » وعدم شرعية زواجه من كاترين ، كما تتضمن انكار كل يمين حلفت قبل ذلك ، لسلطة أجنبية أو أمير أجنبى أو دولة أجنبية ..

ومعنى ذلك الحنث فى الايمان السابقة التى حلفها رجال الدولة على ولائهم للبابا رئيسا للكنيسة .

وكان لابد « لتوماس مور » أن يحلف يمين الاخلاص التى يريد لها هنرى الثامن ، فرفض « مور » رفضا يزداد رسوخا وثباتا ، كلما ازداد هنرى الجاحا ورغبة فآلقى « مور » فى « برج لندن » حيث حوكم وأدين وأزهقت روحه فى اليوم السادس من يوليو عام ١٥٣٥

أما كتابه « اليوتوبيا » - أو المدينة التى لا وجود لها - فقد كتبه ليصلح الاخطاء الاجتماعية فى انجلترا فى عصره .

وقد لقي هذا الكتاب كثيرا من النقد الشديد وكاد النقاد يجمعون على أنه ضيق الخيال مألوف الفكر ولا يقدم للقارىء شيئا جديدا ذا غناء ، فضلا عن أنه لا يواجه الحقيقة الواقعة فيما يسط من آراء ..

ولعلنا نكون أشد انصافا للكاتب حين نذكر أنه قصد الى اصلاح الحياة الانجليزية وتقويمها قبل أن يقصد الى تصوير دولة مثلى كما فعل افلاطون فى جمهوريته ، ومن هنا جاء البناء ناقصا فاتهمه الناقدون مثل « مشليه » و « ولز » بالقصور فى الخيال .

وأهم الاغراض التى أرادها « مور » بكتابه هذا هى :

١ - أن يشير فى تهكم الى ما يسود انجلترا خاصة وأوربا عامة من مساوئ اجتماعية .

٢ - أن يرسم صورة خيالية لدولة مثلى .

٣ - أن يوضح فساد الاخلاق ، بأن يقارن بين الاخلاق السائدة هنا ، والاخلاق القائمة في مدينة أحلامه .

ولقد كان لهذا الكتاب ذبوع عظيم بين الناس لمنزلة كاتبه ، ولأن أشد نزعات ذلك العصر هو الكشف الجغرافي للقارة الجديدة ، فاشتد ميل الناس الى مطالعة ما يكتب عن البلاد البعيدة العجيبة التي كشفها الكاشفون ، سواء كانت تلك الارض المكشوفة في مصور الواقع ، أو من تصوير الخيال . وهل كتاب « يوتوبيا » الا رحلة خيالية الى جزيرة أنشأها خيال الكاتب .

على أن الكتاب لا يخلو من لذة للقارئ الحديث ، ففيه حلول لمسائل هامة مما يشغل العقول في هذا العصر ، منها :

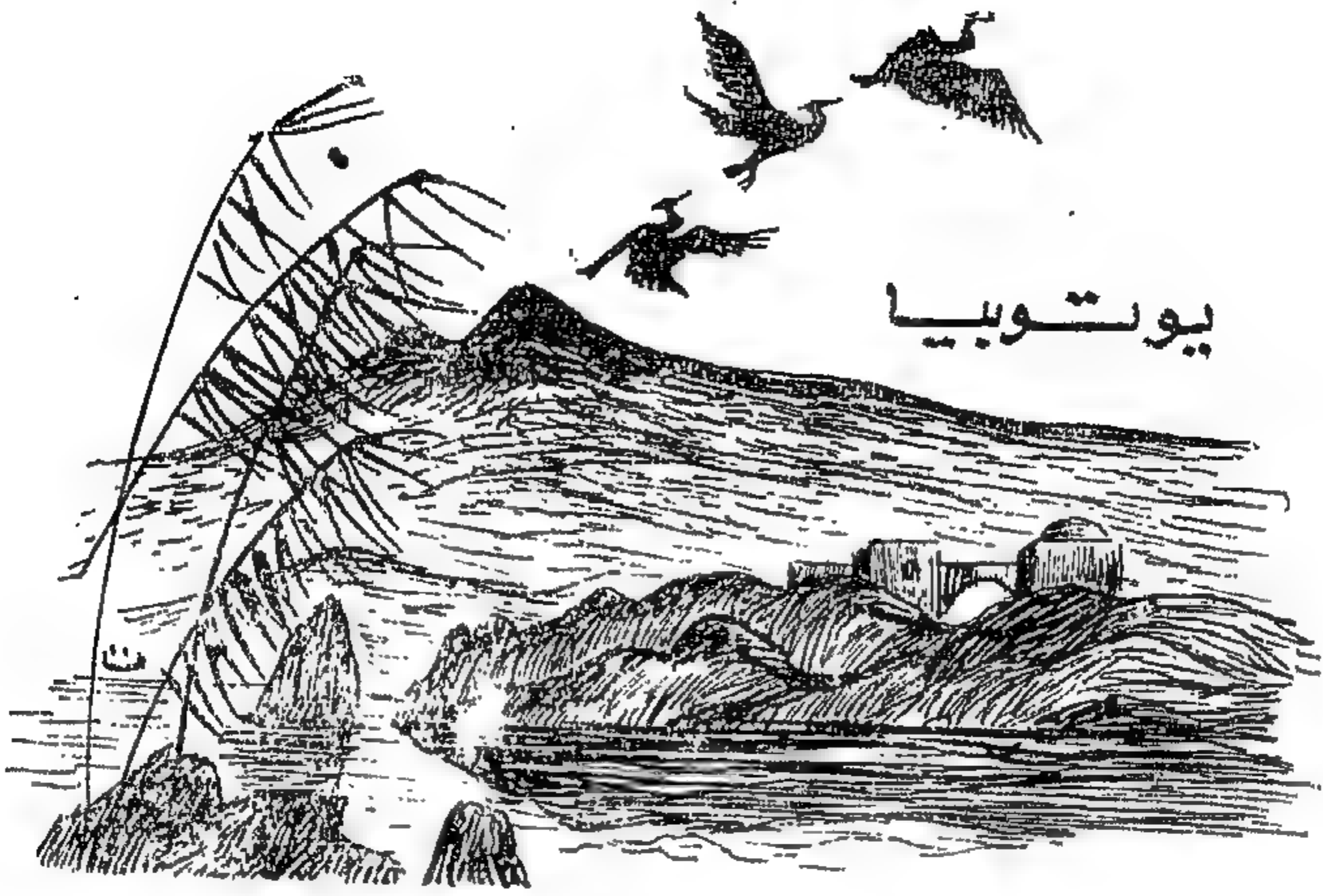
١ - مشكلة أوقات الفراغ ، فانه كلما تقدم الزمن بالصناعة وأصبحت من الرقى قسما ، اتسع فراغ العمال وكان أمره جديرا بالتفكير . ومن المذاهب الاجتماعية السائدة في عصرنا هذا ، رأى ينادى بمبدأ المساواة بين الناس جميعا في أوقات الفراغ ، وذلك ما سبق اليه « توماس مور » اذ ستراه في هذا الكتاب ينادى بوجوب تحديد ساعات العمل ، فلا تزيد عن ست ساعات .

٢ - أساس السياسة القومية والعلاقة الدولية ، فان « مور » يلج الحاحا شديدا ، في أن تهتدى الامة في سياستها الداخلية وفي علاقتها مع سائر الأمم باحكام العقل ولا تميل في ذلك مع الهوى .

فهذا وحده كفيل بآلا تتعرض الانسانية لما تتعرض له
اليوم من الكوارث والآلام .

٣ - ان أشد ما يرغب فيه « مور » هو محو
الذهب والفضة من الحياة الاقتصادية ، ولعل في
ذلك تشابها قويا مع ما يسرى بيننا اليوم من بعض
الآراء الاقتصادية التي تنادى بعدم الأخذ بالذهب
كقاعدة للنقد .





تخيل «توماس مور» أنه حين أرسله هنري الثامن سفيراً يفاوض في هولندا في بعض الشؤون السياسية بين الدولتين ، قابل هنالك رجلاً اسمه هتلوداي ، عرف منه أنه سافر في رحلة طويلة إلى جزيرة مجهولة يطلق عليها « بوتوبيا » فأعجب بما فيها من نظم اجتماعية ، وخلقية ، وسياسية ، وهو يريد أن يذيع في الناس قصة هتلوداي ، كما سمعها منه ، لعلها تهذيبهم في إصلاح بلادهم .

ويستهل « مور » الكتاب برسالة يزعم أنها لصديق يعرف هتلوداي صاحب القصة ، فيرجوه أن يقابل هذا الرجل ويعرض عليه مسودة الكتاب قبل نشره ، خشية أن يكون فيه شيء من الخطأ ، لأنه حريص على أن يخرج للناس صحيحاً صادقاً . . وهو يقرر لصديقه في هذه الرسالة أنه حتى بعد

تحقيق الكتاب واثبات صحته ، يتردد في نشره ، لأنه يعلم ان الكثرة الغالبة من الناس فاسدة العقل مختلة التفكير ، لأنها جاهلة لم تصب قسطا موفورا من العلم ، بل ان الاقلية المتعلمة نفسها ، تحتقر الحق وتزدريه . فماذا عساه أن يفيد بنشر الكتاب وهو يكاد يثق انه لن يصادف عند القوم الا ازورا ؟ وما أهون أن تتناوله السنة النقد الهادمة ، فيقضى عليه ناقد بكلمة واحدة ، يرسلها بين رنين الكؤوس ، دون أن يكلف نفسه عناء القراءة فضلا عن البحث والتفكير

ثم يبدأ الكاتب بعد ذلك في رواية القصة ، وهو يقسمها قسمين :

الكتاب الاول ، والكتاب الثانى .



بعث بي الملك هنرى الثامن - ملك انجلترا المنتصر
الظافر - لأفض ما بينه وبين «شارل ملك كاستيل»
من أسباب الخصومة والنزاع ، وكان برفقتي
«تستول» وهو أشهر من أن أعرف القارىء به ،
ولو فعلت كنت كمن يبين موضع الشمس بشمعة
كما يقول المثل السائر . . فقابلنا في «بروج» رسل
«الملك شارل» ، وكلهم ذكى ، ممتاز ، فان اختصصت
أحدهم بمدح فهو «تمسيس» الذى امتلأت أعجابه
ببلاغته ودرأيته بالقوانين ، وما أوتى من المواهب
النادرة ، والعلم الفزير . .

واجتمعنا بهؤلاء السفراء ، مرتين لم تسفرا عن
وفاق ، فسافروا ليعرضوا الامر على أميرهم «شارل»
في بروكسل ، وسافرت الى انتورب

وبينما أنا مقيم في انتورب ، اذ زارنى «بطرس جيلز»
وهو من أهالى انتورب ، وقد حسنت سمعته بين
قومه ، فامتدحته الألسنة لعلمه وفضله ، وعرف فيه

الناس وفاء نادرا لأصدقائه ، فضلا عن مرجه
الجذاب ، وحديثه الحلو ، فكان « بطرس » لى فى
غربتى الموحشة أحسن السلوى ، وخففت صحبته من
لوعتى المتحرقة نحو بلادى ، وزوجى ، وأبنائى الذين
كنت قد فارقتهم منذ شهور أربعة .

أديت الصلاة ذات يوم فى كنيسة جميلة البناء ،
وسرت فى طريقى عائدا الى الدار ، فأبصرت بطرس
يتحدث مع رجل تقدمت به السن ، بشرته ضاربة الى
السمر من لفحة الشمس ، وله لحية طويلة بيضاء ،
وكان يتلفع بثوب فوق كتفيه ، وما كدت أراه حتى
رجحت أن يكون بحارا . فلما رآنى بطرس ، أقبل
نحوى مسرعا وحيانى ، فكدت أطلب اليه أن يعود
الى محدثه ، لولا أنه أسرع فأنبأنى بأنه كان يعتزم أن
يصطحب ذلك الرجل الى دارى ، فأجبتة : انهما يحلان
أهلا وسهلا ، لما يكنه صدرى من خب لبطرس ، فقال
لى : انك لن تجد بين الناس من يتحدث اليك حديثا
أطلى وأشهى من حديث هذا الرجل ، فهو يروى
لك قصصا ممتعة عن شعوب مجهولة زارها بنفسه
وبلاد عجيبة رآها بعينه ، وأنا أعلم انك راغب فى مثل
هذه الانباء .

أما ذلك الرجل فهو « روفائيل هيتلوداي » ، كان
عالما باللغة اللاتينية ، ضليعا فى اليونانية ، وأنفق
أيامه فى دراسة الفلسفة وقد دفعه حب الرحلة الى
اصطحاب « امريجو فسبوتش » (١) فى رحلاته الثلاث
الاخيرة ، ولكنه لم يعد مع امريجو فى ثالثتها ، بل

(١) « امريجو » هو مكتشف أمريكا بعد كولبس ، وباسمه سميت
القارة الجديدة .

آثر البقاء في أرض « جيلايك » مع أربعة وعشرين رجلا سواه تركهم امريجو هنالك .

آثر « روفائيل » البقاء في تلك البلاد ، ليضرب في أنحائها ويجوس خلالها ، لأنه يحب أخطار السفر أكثر مما يحب السلامة والعافية ، ولم يكن يعبأ أن يدركه الموت في إحدى رحلاته قائلا : ان من لا قبر له ، فالسما غطاؤه ، والطريق الى الجنة بعدها واحد . . . أينما صعدت اليها . . . فلما غادره امريجو ، أخذ « روفائيل » ينتقل من بلد الى بلد مع خمسة من أهل « جيلايك » ، ثم انتهى آخر أمره الى بلد رأى به مركبا رأسيا من مراكب وطنه ، فعاد على ظهرها .

أنبأني بطرس بهذا كله عن « روفائيل » ، فشكرته على أن أتاح لي فرصة التحدث الى هذا الرجل ، والتفت الى « روفائيل » وحيثه ، فرد التحية ، وأخذنا في حديث أولى كهذا الذي يبدأ به الناس عادة صداقة جديدة ، ودعوته الى داري ، وهناك جلست واياها على مصطبة في حديقتي ، غطاها الحشيش الأخضر ، ثم بدأنا الحديث .

حدثنا انه حين تخلف في أرض « جيلايك » بعد أن غادره « امريجو فسيبوتش » لم يجد عسرا في مخالطة الناس ومعاشرتهم لأنه استطاع أن يكسب قلوبهم بطلاوة حديثه ، فعاش بينهم في ألفة ومحبة ، وأحبه رجل ذو منزلة عالية - نسبته اسمه وبلده - فأمر أن تكون نفقات عيشه وسائر رفقائه من حسابه ، وزوده برجل يهديه الى الطريق الصحيح أثناء رحلته ، ويقدمه الى أمراء البلدان التي يمرون بها ليهيئ له حسن القبول

وبعد رحلة استغرقت أياما ، جاء الى مجموعة من المدن تسكنها شعوب غنية ————— سعيدة محكومة بقوانين لا يجد النقد اليها سبيلا .. وقد عبر في طريقه الى تلك المدن ————— صحراوات فسيحة مترامية الاطراف تكاد أرضها تلتهب بحرارة الشمس التى لا تحول ولا تزول ، فكل ما فيها مخيف مفرع كريحه بفيض ، وكل ما تقع عليه العين بها ناب ممقوت ، ولا يسكنها سوى صنوف الحيوان المفترس والزواحف الفاتكة ، وأقوام من الاناسى ، لا يقلون وحشية عن الحيوان والافاعى .

فاذا ما عبرت ذلك الاقليم المخيف ، أخذ كل شئ يتبدل أمام ناظريك ويتغير ، فالهواء بليل عليل معتدل ، والأرض يكسوها النخيل الاخضر ، والحيوان طيع ذلول ، والناس يقيمون فى المدائن ويحيون حياة نشيطة سعيدة .

ولست أستطيع أن أنقل حديث « روفائيل » بأكمله ، ولكنى سأروى عنه حديثه عن تلك الشعوب التى ألفاها تعيش فى نظام محكم دقيق ، وتحكمهم مجموعة من القوانين الصالحة القويمة ، لأنه أكثر من السؤال فى هذا الموضوع لكى أزداد دراية وعلمًا بتلك الشعوب وحياتها ، فما أندر أن تصادف شعبا تسوده القوانين الصالحة ! ولقد علمت من حديث الرجل عن تلك السلال العجسة شئًا كثيرا مما يصح أن نقتبسه فى بلادنا لنمحو شيئا من أخطائنا وهانذا سأقص عليك ما رواه الرجل عن أخلاق أهل « يوتوبيا » وعاداتهم وقوانينهم .

أخذ « روفائيل » يتحدث عن قوانين « يوتوبيا »

ويقارن بينها وبين قوانين بلادنا ، فأبدى مهارة عجيبة
ودراية واسعة بنظم الحكم ، فسأله بطرس :

— انى ليدهشنى يا « روفائيل » أن تكون على هذا
القدر من العلم ، ولا تلتحق بحاشية الملك (١) ، انى
لعلى يقين انك تكون فى بلاط الامير درة نادرة ، وتعلو
فى تقدير الامير لما يجد فى حديثك عن البلاد العجيبة
التي رأيتها من لذة ومتاع ، ولما يفيد من هداية
بنصحك الخالض السديد فى ادارة الحكومة ، بما تضع
أمام عينيه من أمثلة صالحة ..

فأجاب « روفائيل » بأنه لا يحب أن يستعبده ملك
كائنا من كان ، فاعترض بطرس قائلا :

ان الامر لا استعباد فيه ، بل ستصيب منصبا رفيعا
ومالا كثيرا ، وجاها عريضا تنفع به نفسك وأصدقائك

فأجاب « روفائيل » : وماذا أصنع بالثروة وأنا
أستمتع اليوم بحرية ، أين منها الملوك والأمراء ، افعل
ما أشاء متى أشاء ..

فقلت له : أى صديقى « روفائيل » !.. انى لأتبين
فى وضوح انك لا ترغب فى مال ولا سلطان ، وانى لأحترم
رجلا هذا مذهبه أكثر مما أقدر أولئك الذين ينساقون
الى القوة والجاه . ولكنى أرى مع ذلك انك تستطيع
أن تخدم الوطن وأنت فى منصب رفيع الى جانب الامير
لتضع فى رأسه الافكار النبيلة والآراء الفاضلة وما
أصلحك لمثل ذاك . فأجابنى « روفائيل » :

ياسيدى مور : انك مخدوع خدعتين ، مخدوع فى

(١) يلاحظ ان « مور » يقصد نفسه ويريد ان يشرح الاسباب التى
حملته على رفض المنصب الذى عرض عليه فى بلاط هنرى الثامن .

قدرتى ، ومخدوع فى صفات الملوك وأخلاقهم . أما أنا فليس لى ما شاء فضلك أن يعزوه الى . وأما الملوك فمعظم عملهم خاص بالحروب - وهذا شىء أمقته وأجهله فى آن معا - فهم بالحروب أكثر شغلا منهم بالسلم وصالح الشعب ، وهم يبذلون جهدا فى محاولة توسيع ملكهم أكثر جدا مما ينفقونه فى محاولة حكم بلادهم حكما صالحا . . . وأعجب من هذا يا صديقى أن الناس أنفسهم لا يأنهون للأصلاح فى كثير أو قليل ، ولو بسطت لهم رأيا ناضجا فى إصلاح شئونهم سلقوك بالسن النقد الحداد .

فسأله : ترى هل مرت ببلدنا فيما مرت ؟

فأجاب أنه فعل ، ومكث به أربعة أشهر أو خمسة عقب الثورة التى قام بها أهل المناطق الغربية فى وجه الملك فقمعت بسفك الدماء ، وقابل هناك بعض كبار رجال الدولة وتحدث اليهم كثيرا .

وذكر « روفائيل » أنه عجب أشد العجب حين مر بأرض انجلترا فوجد أن اللص جزاؤه الإعدام (١) . وعلق على ذلك قائلا : أن ذلك جاوز حد العدل ، فهو عقاب لا يمنع السرقة رغم قسوته . فما من عقوبة تنجح فى منع السرقة مادام السارقون لا يجدون أمامهم فرصة العمل الشريف سانحة ، وما أشبه الحاكم الذى يقتل السارق دون أن بهيئه له العمل أولا بالمدرس الإحمق الذى يضرب تلميذه ولا يعلمه شيئا .

قال « روفائيل » أنه تحدث فى ذلك الى رئيس أساقفة كانتربرى والى كبير من كبراء الدولة ، فأجابه ذو المنصب الرفيع بأن القانون الذى يعترض عليه

(١) ينقد مور القانون الانجليزى اذ ذاك .

عادل لا عوج فيه ، وان هؤلاء اللصوص في مكنتهم ان
يمتهنوا الصناعات اليدوية ، أو يشتغلوا بفلاحة الارض،
لولا ان الشر ركب في طبيعهم ، فقال له « روفائيل » :

ان هذا الجواب لا يقنع ولا يسلم من النقد . فدعك
من ذوى العاهات الذين أعجزتهم الحرب عن مزاولة
صناعاتهم ، والذين تقدمت بهم السن ، حتى لم يعد
في مقدورهم أن يتخذوا لأنفسهم مهنة أخرى . دعك من
هؤلاء ، وفكر في الامور التي تجرى تحت بصرك كل
يوم ، فانظر الى هؤلاء السادة المالكين الذين لا يكفيهم
أن يعيشوا بأنفسهم عيش البطالة بما يفرضونه على
مستأجرى ارضهم من عالى الاجور ، فتراهم يحيطون
أنفسهم بحاشية من المتعطلين الذين لا يتعلمون صنعة
يكسبون بها عيشهم ، حتى اذا مات سيدهم ، أو
أصابهم المرض ، شردوا ، لأن السادة يؤثرون الانفاق
على متعطل في سبيل المرضى ، فأى سبيل أمام
هؤلاء غير السرقة ؟ . فلا هم بصالحين أن يكونوا في
حاشيات السادة الاغنياء ، ولا هم بقادرين أن
يقلحوا الارض ويأكلوا من ثمرها ، لأنهم نشأوا نشأة
ناعمة لا تعرف هذه الخشونة الفليضة في العمل . . .

ثم انظر يا صاحبى الى الاشراف ، ورجال الدين ،
كيف يبلغ بهم الجشع في كسب المال ، أن يحولوا
المزارع الى مراعى ، لأن الرعى أدر للربح ، فيشردون
بذلك ألوف المزارعين ، رجالا ، ونساء ، وشيوخا ،
وأطفالا ، فيضربون في الارض يمدون أيديهم طلبنا
لاحسان المحسنين ، ولا تكتفى الحكومة بهذا فتطوح
بهم في غيابات السجون لأنهم يسألون الصدقة
ولا يعملون ، الا ان جشع الاقلية الغنية قد جر الخراب

على البلاد ، فتبطل ، وتسول ، وشقاء ، وبؤس في
ناحية ، وترف ، وعريضة ، وخمر ، ومقامرة ، وعهر
في ناحية أخرى ! !

لن يكون قتل اللصوص عادلا ، الا اذا هيأنا لهم
عملا بان نخلص البلاد من بلاء الاغنياء المخيف ،
فلا نسمح لهم بطرد المزارعين من اراضيهم حتى نفسح
في ميدان العمل الشريف أمام من عضهم الفقر ،
فاضطروا الى التسول او السرقة .

فسأل الرئيس الدينى الذى كان يستمع الى حديثه :

ان كنت ياسيدى « روفائيل » لا ترى قتل اللص
عادلا ، فماذا تقترح للسرقة من عقاب ؟.. فأجاب
« روفائيل » :

ياسيدى لست أظن من الحق والعدل ان نزهق
النفوس البشرية من أجل ازهاق المال . ورأى ان
خيرات الارض كلها لا تساوى حياة انسان واحد .
ولقد نهانا الله عن قتل الانسان ، فكيف نتعجل فنزهق
حياة رجل لأنه سرق حفنة من المال ؟ ان الخطأ
في التفكير بين واضح حين نقول ان اللص والقاتل يجب
ان تنزل بهما عقوبة واحدة . اليس هذا يشجع اللص
على ان يقتل صاحب المال الذى يريد أن يسرقه
ما دام قتله لا يزيد من جريمته ؟.. بل يفسح أمامه
الامل فى النجاة لأنه سيخرس اللسان الذى قد يفضح
جريمته ؟ اننا يا سيدى نحاول أن نتعقب اللصوص
لنتناولهم بالتأديب فنخلق بذلك القاتلين .

لم يكذ يصل « روفائيل » من روايته الى هذا
الحد حتى قال له مور :

أن ذلك ليزيدنى الحاحا فى أن تلتحق ببلاط الأمير
لتفيد أمتك بسديد رأيك . فإذا كان افلاطون يعتقد
ألا رجاء فى الإصلاح إلا إذا كان الفلاسفة حكاما ، أو
إذا درس الحكام الفلسفة ، فما أبعد الأمم عن سعادتها
أن أجفل الفلاسفة عن تسديد خطا الملوك بنصحهم
الثمين .

فأجاب « روفائيل » :

لست أظن يا سيدى موز أن الفلاسفة ستبلغ بهم
القسوة وغلظة القلب هذا الحد البعيد ، بل أن
الفلاسفة ليسرهم أن يقدموا لأمتهم هذا الصنيع ،
بل هم قدموه فعلا بما نشروا من الكتب أو أن آذان
الملوك والأمراء تصيخ للنصح الجميل .

أن افلاطون يا صاحبى قد تنبأ بأن الملوك إذا لم
يفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة فلن تقبل
أذهانهم على نصائح الفلاسفة ، لأنهم سيكونون قد
تأثروا بالآراء الفاسدة . وذلك ما برهن على صحته
افلاطون بنفسه حين ذهب يعلم الملك ديونيس . .
اننى إذا قدمت للملك نصائحى وحاولت أن أطلع
من رأسه أسباب الشر والسوء فاما أن يكون جزائى
الطرد أو السخرية .

افرض مثلا أن ملك فرنسا طلب المشورة من رجاله
فيما يتصل بحربه مع ايطاليا ، فأشار عليه مشيروه
بأن يحارب ليوسع من أملاكه ، ثم تقدمت أنا إليه
بالنصح ألا يدخل الحرب ، لأن فرنسا وحدها أكبر
جدا من أن يملكها ويحسن حكمها ملك واحد ، ثم
أخذت أشرح له طرائق أهل « يوتوبيا » فى الحكم

ليحذو حذوها ، الا اكون بذلك موضعاً للسخرية
والضحك ؟

فقد حدث مرة ان اهل اليوتوبيا اشتبكوا في قتال
مع بلد آخر ، وكتب لهم النصر ، وظفروا بذلك البلد
لملكهم ، ولكنهم تبينوا فيما بعد ان الاحتفاظ
بهذا البلد الجديد في حوزتهم يكلفهم حرباً متصلة
لا تنقطع ، يقمعون ثورته مرة ، ويردون عنه المهاجمين
مرة أخرى ، فلم يترددوا في التنازل عنه ، اذا راوا
ان من الخير لهم ان ينصرف ملكهم الى حكم بلدهم
وكفى ليستمتعوا جميعاً بالسعادة وراحة البال .

هبنى يا صديقي قلت لملك فرنسا نصيحة كهذه ،
واشرت عليه بأن هذه الأبهة للحرب ستحدث
القلق في أمم كثيرة وستتفق في سبيلها المال ويهلك
الرجال ، وان ذلك الاضطراب كله سينتهي بلا شيء ،
ولن يعود على أحد بطائل ، وانه خير له ان يقنع
بفرنسا ويكفيه فخرا أن يوفر لشعبها السعادة والثروة
والهدوء ، فلا ينبغي أن يتدخل في شئون غيره من الامم
الآن ما يملكه فوق ما يكفيه . . أقول ، لو انى تقدمت
بمثل هذا النصيح الى ملك فرنسا ، فكيف تراه يقع
من نفسه يا سيدى مور ؟

فقلت : ما أحسبه شاكرًا لك هذا النصيح .

فقال : هب أميراً أخذ يفكر ويستشير ذوى الراى في
ملء خزانته بالمال ، فينصحه مشير أن يرفع قيمة النقد
اذا كان عليه أن يدفع مالا ، وأن يخفض قيمة النقد
اذا كان على الناس أن يدفعوا له مالا ، وبهذا يستطيع
الملك أن يدفع قدراً ضئيلاً من المال فيسدد به ديناً

عظيما ، وأن ينال قدرا عظيما من المال حين يكون
من حقه قليل منه ..

واذا نصح له ناصح بأن يزعم باطلا أمام الشعب انه
يعتزم محاربه الأعداء ، ويأخذ في جمع الضرائب تبعا
لذلك ، حتى اذا ما حصل مبلغا جسيما ، أعلن في
شعبه انه اثر الصلح ، لأنه يحب شعبه ولا يرضى
له سفك الدماء .. او اذا أشار مستشار بأن يفرض
الملك غرامات مالية على من يعتدى على هذا القانون
أو ذاك من القوانين التي تفادى عهدا حتى نسيها
الناس ، وبذلك يجمع مالا طائلا من ظلم ظاهره العدل
الشريف ..

أقول : لو أراد الملك أن يجمع لنفسه المال فأشار
عليه المشيرون أن يلجأ الى تلك الوسائل وأمثالها ،
بحجة أن بقاء الثروة في أيدي الشعب يجعله صعب
القياد نزاعا للثورة ، فمن الخير أن نسلب أمواله على
هذا النحو حتى يخرس الفقر السنة الثائرين ، فماذا
عساي أن أقول للملك بعد هذا ؟ ! أقول : ان هذه
النصائح لا تشرف الملك الذي تتوقف سلامته ومكانته
على ثروة شعبه أكثر مما تتوقف على ثروته الشخصية ؟
أقول : ان الشعب يختار الملك ليحكم في صالح
الشعب نفسه لا في صالح الملك ، وانه يختاره ملكا
لينفق عمره في تهيئة العيش الرغيد الهادئ للجميع
دون أن يعرض الناس للضرر والخطر ، ولذا يجب
على الملك أن يفكر في ثروة شعبه أكثر مما يفكر في
ثروته هو ، كما ان وظيفة الراعى - من حيث هو
راع - أن يطعم الغنم قبل أن يطعم نفسه ؟

من ذا تحدّثه نفسه بالثورة الا الساخط على حالته

الراهنه ؟ من ذا يسعى الى تعكير الصفو ، ألا من لا يملك شيئا يخشى أن يفقده ؟ .. ان الشعب اذا ازدرى مليكه ولم يعد ينظر اليه نظرة الاحترام والتقدير ، بحيث يعجز الملك عن حفظ الامن الا بالسبل الباطلة والضرائب الظالمة ، فخير له أن يغادر عرش الملك ، لأنه ان أصر على البقاء فسيكون ملكا بغير جلال الملك ..

ان الملك لا يشرفه ان يبسط سلطانه على شعب من المتسولين ، بل فخاره أن يحكم قوما أغنياء . وهذا ما قاله أحد الملوك القدامى : خير لى أن أحكم شعبا غنيا من أن أكون غنيا .. ليست وظيفة الحاكم أن يعيش فى بذخ ، وبجبوحه ، فى شعب يتضور جوعا ويئن من الألم ، ولكنها وظيفة السجان .

ان الملك الذى لا يقوى على اصلاح شعبه الا اذا سلبهم مالهم يكون كاطبيب العاجز الذى لا يستطيع أن يعالج علة فى مريضه ، الا اذا سبب له علة أخرى . ومن هذا شأنه من الملوك يجب أن يسلم بأن صناعة الحكم ليست فى مقدوره .

أما الملك الصالح ، فهو من احتقر اللذائذ الدنيئة وتخلص من كبريائه ، وحاول ألا يوقع الاذى بأحد من شعبه . وهو الذى يمنع أسباب الفوضى واعتداء الأفراد بعضهم على بعض بما يضع لهم من دقيق النظام لا بأن يزيد أسباب الاعتداء ، ثم ينزل بالمعتدين العقاب ... لو تقدمت الى الملك بهذه النصائح ، الا يشيح عنى بوجهه ولا يستقبل حديثى الا بأذن صماء ؟

فأجبتة أن نعم .

ثم أضفت انه ما ينبغى أن يصارح الملوك بكل قول

صحيح ، فكل مقام مقال . ولكن ان كان عسيرا
على الحكيم أن يقتلع من رعوس الملوك أخطاءها ، فليس
ذلك بمبرر له أن يهمل صالح الدولة . أفترك السفينة
في العاصفة الهوجاء لأنك لا تستطيع أن تسيطر على
الرياح ؟

وقلت له :

ان واجبك يا صاحبي إلا تفجأ الملك بكلام شاذ
غريب لم تألفه مسامعه ، بل شأبك أن تعالج الامر في
مهارة وكياسة حتى تبلغ غايتك ، وما لا تستطيع أن
تصلحه كل الاصلاح ، فقوم عوجه ما وجدت الى ذلك
سييلا ، حتى لا يكون شيئا كل السوء ، لأن الاشياء
لا تطيب ولا تجود الى أقصى غايات الطيب والجودة
الا ان طاب الناس أجمعون ، وذلك ما لن يكون الا
بعد حين طويل من الدهر . فاعترضني «روفائيل» قائلا:

اذن فلن أغير شيئا مما هو كائن ، وما دمت أعيش
بين قوم مجانين فلاكن مجنونا مثلهم . والا فماذا أنا
صانع ! أقول الحق فأضادف أذانا صماء ، أم أقول
الباطل وأنا عليم ببطلانه .

لا ، لن أقول باطلا عن عمد ما حييت . وأما الحق
فسنبو عن أسماعهم لأنهم لم يألفوه ، فلو صارحت
الناس بما قاله افلاطون في تنظيم الدولة ، أو بما
يسود يوتوبيا من قوانين لهالهم أن يعلموا ان افلاطون
وأهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ولا يقرون
هذه الملكية الفردية التي تقوم بيننا

أنك لتنصحني يا سيدي مور أن أزاوغ في بسط
آرائي للأمير الحاكم ، فلا أواجهه بالحقيقة عارية مرة ،

وذلك يذكرني بشيء وهو أن آراء المسيح على حقيقتها بعيدة كل البعد عن أفهام الناس ، بل هي أغرب عليهم من آراء أهل يوتوبيا ، فلجأ القساوسة الى سياسة عجيبة ، وهي أن يحوروا ويشذبوا من آراء المسيح حتى تقرب من أفكار الناس فلا تبدو لهم عجبا . أتريدنى على انتهاج هذا السبيل فى اعلان آرائى الجديدة ؟انى ان فعلت ما افاد الناس شيئا ، لأنى اما تاركهم فى غيهم يعمهون ، أو دافع بهم الى ضلال فوق ضلالهم

اذا رضيت أن اكون ناصحا للملك فاما أن أقول رأيا يخالف رأيه ، وهذا يساوى الا أقول شيئا ، لأنه لن يستمع الى قولى ، واما أن أقول ما يتفق مع رأيه وهذا يشجعه على ما هو ماض فيه من جنون .

خذها كلمة يا سيدي مور ، ما دامت الملكية الفردية قائمة فلا رجاء فى اصلاح ، الا اذا كان رأيك ان العدل يستقيم ميزانه اذا وضعت الاشياء فى أيدي الاشرار ، أو اذا قسمت الثروة بين نفر قليل من الناس وعاش الباقون فى فاقة وشقاء .

ان أهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ، ولذا ترى كل انسان هنالك مسدود الحاجات ، بل تفمره وفرة من الانتاج . .

فأنا أوافق افلاطون فيما ذهب اليه من اشتراكية ، ولست أعجب حين أعلم برفضه أن يسن الشرائع لقوم لا يستمعون الى نصحه فى قسمة الثروة بالتساوى بين الجميع . فقد أدرك ذلك الفيلسوف العظيم ألا سبيل الى سعادة المجتمع الا أن تسود المساواة بين الافراد فى كل شيء ، وهذه المساواة المطلقة مستحيلة ما

بقيت الملكية الخاصة قائمة فاذا طفق فرد يسقى جهده في تحصيل ما يمكن تحصيله من الثروة ، كانت النتيجة المحتومة لذلك أن تنحصر الثروة في أيدي طائفة قليلة ، وأن يظل الباقيون - وهم الكثرة الغالبة - في فقر وحاجة . مع أن هذه الكثرة في معظم الحالات أحق بالتمتع بالمال من أولئك الأغنياء ، لأن الأغنياء كثيراً ما يستولى عليهم الجشع في جمع المال دون أن يؤدوا عملاً يفيد أمتهم ، أما الفقراء فهم الذين يعيشون عيشة البساطة ويفيدون أمتهم بما يؤدونه كل يوم من الأعمال أكثر مما يفيدون أنفسهم . . فيقيني الذي لا أشك فيه هو أننا لن نبلغ الكمال في توزيع الثروة إلا إذا حطمتنا قوائم الملكية الخاصة .

مادامت الملكية الفردية قائمة فسيبقى الفقر بعينه الثقيل . نعم . قد تخف وطأة شره بعض الشرائع الحكيمة ، كأن يضرب حد أقصى لما يجوز أن يملكه الفرد ، أو لما يجوز أن يحوزه الملك من الأرض والسلطان ، وأن يحرم توزيع المناصب بالرشوة والهدايا لأن ذلك يجعل مناصب الدولة في مقدور الأغنياء وحدهم . مع أن الحكماء من ذوى العقول الراجحة هم أحق بها ، أقول أنه قد تخف وطأة الشر بمثل هذه الشرائع ، ولكن البلاء لا يزول ولا يقتلع من جذوره إلا أن أتينا على الملكية الخاصة فمحوناها محواً من الوجود .

« فاعترضت «روفايل» قائلاً : لكن اشتراكية الأشياء بين الناس لا تخفف أبداً إلى الجند في العمل ، وبذلك يكتب عليهم جميعاً أن يعيشوا عيش الفاقة ، إذ ينضب معين الانتاج بقلّة العمل .

فأجابني : لست أعجب أن يكون هذا رأيك ، فأنت

تتصور الموضوع تصورا باطلا . فلو رأيت معي أهل
يوتوبيا وشهدت حياتهم وما يسودها من قوانين
فقد عشت بين ظهرائهم خمسة أعوام ، وكنت أوثر
البقاء لولا أنني طمعت أن أعود لأنشر بين الناس هنا
أنباء ذلك العالم المجهول .

أقول : لو كنت معي يا صديقي مور ، لأيقنت أن ذلك
هو نظام الحياة الكامل وألا نظام سواه .

ومن حسناتهم أنهم إذا علموا شيئا جديدا مفيدا
ممن تطوح به الأقدار كما طوحت بي إلى بلادهم ، فإنهم
لا يترددون لحظة في الأخذ به وتطبيقه ما دام صالحا
نافعا . أما نحن فوا أسفاه ! نسمع بنظام أحسن من
نظامنا فلا نأبه له . ولعل ذلك الفارق هو وحده الذي
يجعل أهل يوتوبيا - في رأيي - أصلح منا للحياة
والبقاء ، وأن لم تكن أقل منهم في الثروة والذكاء .

فقلت « لروفاثيل » :

إذا كان الأمر كذلك ، فأتوسل إليك أن تصف لي
تلك البلاد ، ولا توجز الوصف ، بل نقل في أطباق
لأعلم كثيرا عن أرضهم وأنهارهم ومدنهم وأخلاقهم
وقوانينهم ونظمهم ، وكل ما تحب أن تنقل عنهم من
جوانب الحياة . وما أحسبك باخلا علينا بهذا . فقال :

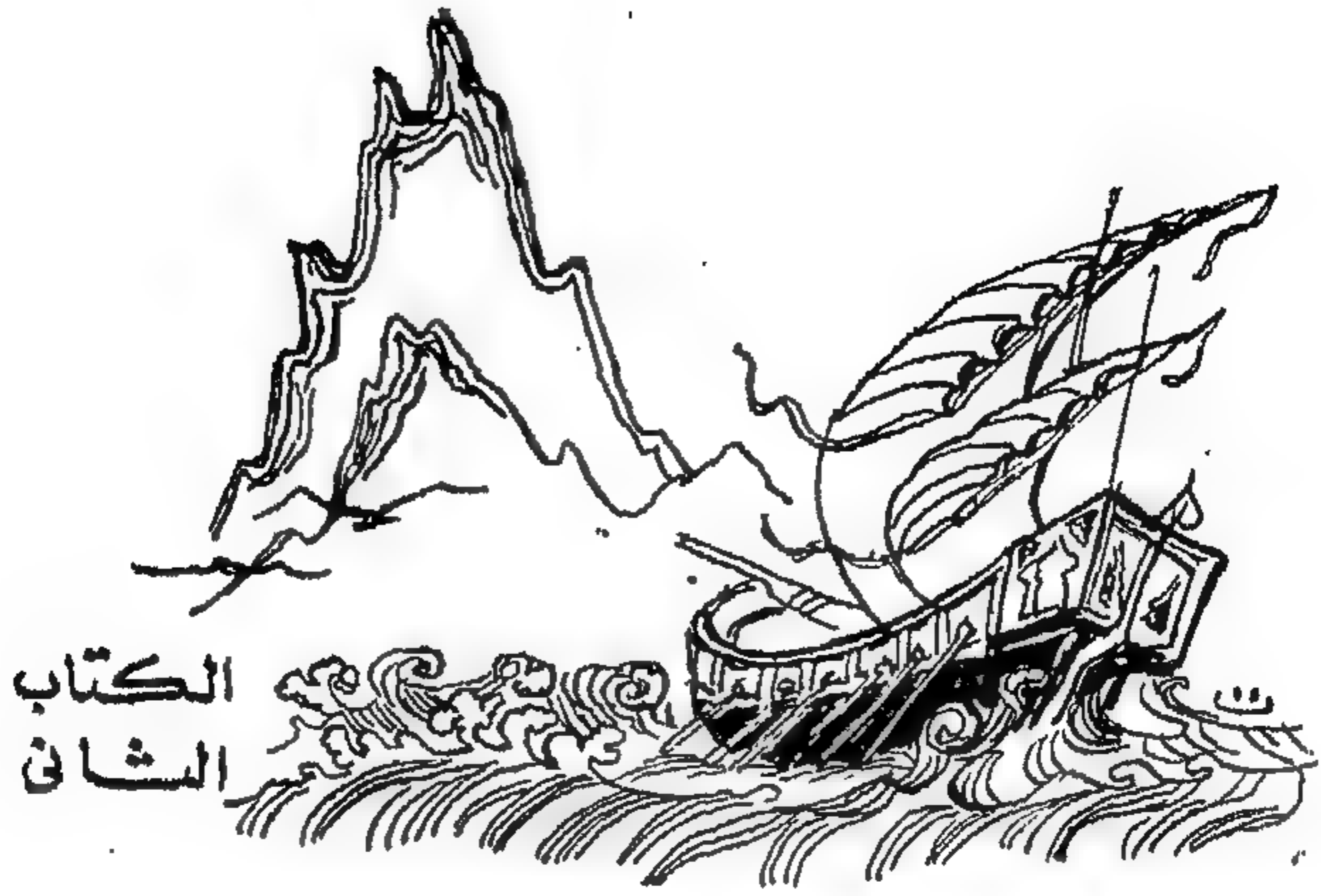
بل ليس أحب إلى من ذلك ، فالأمر في ذهني بين
واضح ، ولكنه يقتضي بعض أوقات الفراغ لروايته .

قلت : لنتناول الآن معا طعام غداتنا ، ولنرجى
الحديث إلى وقت آخر .

وكان أن فرغنا من الطعام وعدنا إلى الحديقة حيث

كنّا ، فُجِلسنا على المصطبة العشوشية ، وآثرت ألا يدنو
منا أحد من الخدم حتى لا يضطرب حبل الحديث .
وجلسنا ثلاثتنا : انا ، وصديقي بطرس ، وروفائيل .
وصمت « روفائيل » قليلا ، وأرهفنا له الآذان ،
فشرع يقول ..





يوتوبيا جزيرة يبلغ عرضها في وسطها - وهو أعرض
أجزائها - مائتي ميل - ثم ينثنى طرفاها بحيث تصبح
الجزيرة في شكل هلال وليد ، وينفذ البحر بين طرفيه
الذين يبعد أحدهما عن الآخر أحد عشر ميلا ، أو ما
يقرب من ذلك .

وتنهض في وسط الجزيرة صخرة عالية أقيم عليها
برج حصين تحرسه حامية من الرجال وقد نتأت
صخور تحت سطح البحر بقرب الشاطئء بحيث
يستحيل على القادم الغريب أن يسلك بسفينته سبيلا
سويا إلا أن يهديه دليل من أهالي الجزيرة الى الميناء
الذي يقصد اليه وهذه الصخور الناتئة كقيلة وحدها
ان تسحق الاسطول المهاجم كائنا ما كان ..

هذا في البحر ، وأما في البر فقد شيد حاجز منيع
على حافة الجزيرة ، أقامت بعضه الطبيعة ، وتممه
الانسان ، فيكفي عدد قليل من الجند لحماية الجزيرة

كلها من هجمة الأعداء .

وفي جزيرة يوتويا أربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم كلها بلسان واحد ويلبس الاهلون جميعا طرازا واحدا من اللباس ، ولهم جميعا خلق واحد ، وتسود المدائن كلها نظم واحدة وقوانين بعينها . . .

ولا تبعد مدينة عن مدينة أكثر من رحلة يوم واحد مشيا على الاقدام . وعلى كل مدينة أن تختار من بين أبنائها شيوخا ثلاثة فيجتمع شيوخ الجزيرة كلها معا للتشاور في شئون الدولة .

والمدينة تنقسم الى أسر لا تبقى أن تقل الواحدة منها عن أربعين شخصا يخضعون جميعا للرجل وزوجته اللذين لا بد أن يكونا عاقلين حكيمين تقدمت بهما السن ، وعلى كل ثلاثين أسرة يقوم رئيس أو حاكم .

وتشترط الدولة على كل أسرة أن ترسل كل عام عشرين من أبنائها الى مزارع الريف حيث يقضون الحول في فلاحة الارض ، حتى اذا ما مهر الجميع في الزراعة كان لكل واحد الحق في البقاء في الريف ان اراد .

أما واجب المزارعين فهو حرث الارض وزرعها وتربية الماشية وقطع الاخشاب وارسالها الى المدينة ، وهم يربون قليلا من الجياد الحوشية لتدريب الشبان على الفروسية وركوب الخيل .

وهم لا يزرعون الا قمحا لخبزهم ، وأما شرابهم فنبذ العنب أو عصير التفاح والكمثرى أو الماء القراح .

ولا بد أن يزرعوا ما يزيد عن حاجة المدائن جميعا ليصدروا القدر الزائد الى الامم المجاورة .

والمدن كلها متشابهة بحيث يكفيك أن تعرف واحدة منها لتعرفها كلها ، وسأصف لكم أحداها وتسمى « أمورت » لأنها مقر مجلس الشورى وتعترف لها بقية المدائن بالرئاسة .

تقع « أمورت » في حوض تل وطيء ويتخللها نهر تصب فيه نهيرات كثيرة ، وأهلها يحافظون على منابع هذه الأنهار فيقيمون حولها الأسوار حتى لا يمنعها عنهم عدو أو يصيبها بأذى . وقد أحاطوا المدينة بسور من الصخر عال كثيف ، واحتفروا حولها خندقا عميقا تحفه الأشجار والأشواك

وأما المنازل فقد تلاصقت في فخامة وجمال ، تمتد بينها طرق لا يقل عرض الواحد منها عن عشرين قدما ، وزرعت الحدائق الغناء خلف الدور . ولكل منزل بابان ، أحدهما يطل على الطريق والآخر يفتح في الحديقة الخلفية وهي أبواب يسيرة الفتح والأغلاق ولا يجوز لساكن الدار أن يغلقتها بالأقفال والدرايبس حتى يتيسر لمن شاء أن يمر خلالها .

ولم يغلّق صاحب الدار أبوابه وليس في الدار ما يملكه ملكا شخصيا ؟ هذا إلى أن أهل المدينة يتبادلون الدور حيناً بعد حين . . . وتدب المنافسة بين سكان الطرق المختلفة ، فكل فريق يريد أن يبلغ شارعاً حداً أقصى من الجمال ، ولذا فهم لا يدخرون وسعاً في تجميل الطرق وتنسيقها حتى تبدو بهجة للناظرين .

ولعل أجمل ما يسترعى النظر في المدينة ، حدائقها التي يراعى في زرعها الجمال والأثمار في آن معا . وأظن أن مؤسس المدينة كان قد عني بالحدائق أول ما عني .



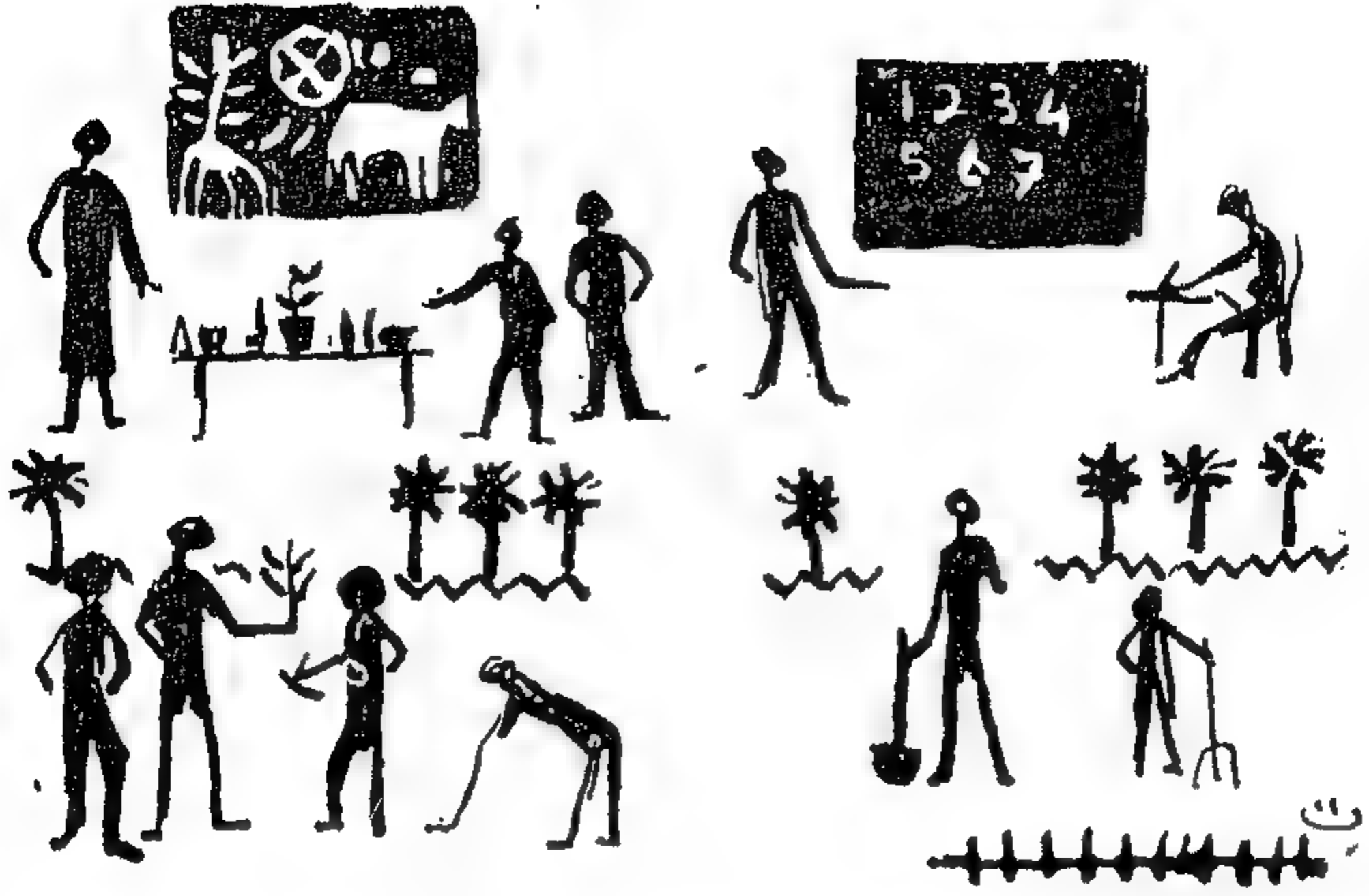
رؤساء المدينة

تختار كل ثلاثين أسرة ممثلاً لها ، ثم يختار كل ثلاثين ممثلاً من هؤلاء رؤيساً . على أن يشترك الممثلون جميعاً في انتخاب أمير البلاد الذي يظل في منصب الحكم ما بقى حياً ، إلا إذا ارتكب من الخيانة ما يستحق العزل من أجله .

وأن نشأت خصومة بين الأفراد نظر في أمرها قاضيان من هؤلاء الرؤساء . أما ما يتعلق بشئون الدولة كلها فلا بد أن يعرض على مجلس الشورى بأجمعه على ألا ينفذ منه شيء إلا بعد مناقشة في المجلس ثلاثة أيام . ومن يناقش في أمور الدولة خارج مجلس الشورى يحكم عليه بالاعدام ، وهم انما أرادوا بهذا القانون ألا

يتآمر الاعضاء خارج المجلس مع الامير على انتهاج خطة يدبرونها .

ولا يبيح قانون مجلس الشورى أن يناقش موضوع إلا اذا سبق عرضه في جلسة سابقة ، ولا يجوز البتة أن يبدأ عضو من فوره في بحث موضوع لم يسبق عرضه في جلسة سابقة ليتقوا بذلك شر أن يقول العضو كل سانحة تمر بذهنه ويأخذ في الدفاع عنها بغير روية ولا تفكير .



العلوم والصناعات والأعمال

الزراعة صناعة محتومة على الجميع رجالا كانوا أو نساء ، فهم يمارسونها منذ الصغر ، فيلقنون مبادئها العلمية في المدرسة ويزاولون شئونها العملية في مزرعة مجاورة لمكان اقامتهم

ثم لكل فرد في الدولة أن يختار الى جانب الزراعة صناعة أخرى يتعلمها من وجهيها العلمي والعملية كصناعة الاقمشة ، أو البناء ، أو الحدادة ، أو النجارة .

ويفرض قانون يوتوبيا أن يلبس الرجال جميعا لباسا لا يختلف فيه رجل عن رجل ، وأن يكون للنساء المتزوجات رداء واحد كذلك ، ولغير المتزوجات منهن رداء آخر ، وقد روعى في الحلة المقررة أن تكون جميلة سهلة لا تعوق حركة الجسم ، وأن تصلح للصيف

والشتاء معا ، وعلى كل أسرة بحكم القانون أن تنسج ملابسها بنفسها .

أقول أن كل فرد في يوتوبيا لابد أن يتعلم صناعة يختارها فوق الزراعة ، على أن تقوم النساء بصفة عامة بالصناعات اليسيرة نوعا كالغزل والنسج ، وأن يقوم الرجال بالمشاق من الاعمال ، كالبناء وما إليه .

على أن العرف السائد في معظم الاسر أن يأخذ الطفل صناعة أبيه ، فان حدث أن طفلا نفر من صناعة أبيه تولت الدولة نقله الى أسرة أخرى يشتغل ربها بالصناعة التي اختارها ذلك الطفل .

فالزراعة ، وصناعة أخرى محتومتان على كل فرد بغير استثناء ، ولكل فرد بعد ذلك أن يختار ما يشاء من الصناعات في أوقات الفراغ .

فان كان واجب الدولة أن تكلف كل فرد بها بعمل يؤديه ، فواجبها كذلك ألا تسمح بأن يجبر فرد على العمل من الصباح الى المساء كأنه حيوان أعجم . فلا ينبغي أن يزيد العمل كل يوم عن ست ساعات ، ثلاث منها قبل الظهر ، ثم يؤذن للعمال بساعتين للفداء والراحة ، ثم ينجزون بقية عملهم في الثلاث الساعات الباقية ويتناولون بعدها عشاءهم ، حتى اذا ما كانت الساعة الثامنة من المساء انصرف الجميع الى المخادع حيث ينامون ثماني ساعات ،

ومن حق الفرد أن يتصرف في وقت فراغه كما يريد على ألا يتجه في ذلك الى الرذيلة وبسوء السلوك . والدولة تنظم محاضرات تلقى في الصباح من كل يوم ليستمع اليها من أراد

أما بعد العشاء فهم يخصصون ساعة للعب والسمر،
ينفقونها في حديقة الدار أن كان الصيف ، وفي قاعة
داخل الدار أن أقبل الشتاء . ولكنهم لا يبيعون
ألعاب النرد وما شابهها ، ويؤثرون ألعابا تشبه الشطرنج

ولقد يخيل اليك أن ست ساعات لا تكفى لينتج
العاملون محصولا كافيا ، فلا يغيب عن ذهنك أن في
الأمم الأخرى شطرا عظيما جدا متعطلا لا عمل له ، فلا
عمل للنساء وهن النصف من كل أمة ، وحتى لو عمل
النساء في بلد وجدتهن يملأن في ذلك مكان الرجال .

ثم أضف الى ذلك رجال الدين والسادة الأغنياء
الذين تسمونهم أشرافا ونبلأ ، فضلا عن يخدمون
هؤلاء الأشراف ، زد على هؤلاء وأولئك ألوف المتسولين
الذين يسترون تعطلهم بستار المرض ..

فاحذف هذا العدد الجسيم من أية أمة شئت ،
وحدثنى كم يبقى من الرجال العاملين ؟ هم قليلون -
أقل جدا مما قد تصور لنفسك - فإن عملوا ساعات
كثيرة كل يوم فلن ينتجوا ما ينتج أهل يوتوبيا في ست
ساعات .

ثم سائل نفسك ، كم من هذه الفئة القليلة العاملة
في بلادنا يعمل عملا مفيدا . أنهم أقل من القليل ، لأنه
حيث يسود المال تشيع أعمال تافهة لا خير فيها لتشبع
الملاذ الدنيئة التى يسعى اليها الأغنياء .

أما اذا عمل كل فرد عملا مفيدا ، اذن لأفيتهم
ينتجون في زمن قليل ما يزيد عن حاجة الجميع

وفضلا عن ذلك كله ، فأهل يوتوبيا يوفرون على

أنفسهم كثيراً من العمل بفضل المساواة التي يفرضونها بين الناس . فليس لأحد منزلان أو أكثر ، كما هي الحال بيننا ، وبذلك يدخر البناؤون كثيراً من جهدهم الضائع في هذه البلاد ، ولا يجوز للرجل هناك أن يستهلك أكثر من جليباب واحد كل عامين ، فأين هذا مما تراه حولك من تصرفات المترفين الأغنياء ، الذين لا يكفى الواحد منهم عشر حلل في العام الواحد ؟

وقد تسألنى :

ومن ذا يقوم في أرض يوتوبيا بالأعمال الشاقة العسيرة ، كرصيف الطرق وما إليها ؟

والجواب : ان ذلك متروك للمسجونين من المجرمين فان بقى شيء أعلنت الدولة ان من يقبل على هذا العمل فله ان يستمتع بوقت فراغ أطول مما يستمتع به سائر الافراد ، وبذلك تغرى قوما باختيار هذه الاعمال ، لأن حكومة يوتوبيا أخذت على نفسها ألا ترفع أحدا على عمل من الاعمال .



قلنا أن مجتمع اليوتوبيا يتألف من أسر ، وأن رأس
الأسرة هو أكبر الذكور سناً ، فإن خرف ولى مكانه من
يتلونه في السن .

وتشترط حكومة يوتوبيا ألا تزيد الأسرة ولا تنقص
عن حد أقصى وحد أدنى تفرضهما الدولة فرضاً ، فإن
زادت أسرة عن العدد المفروض أضيفت الزيادة إلى أسرة
قل عدد أفرادها . فإن زادت أسر المدينة كلها أخذت
الزيادة لتكمل النقص في مدينة أخرى . وإن زادت المدن
كلها أخذ العدد الزائد من كل مدينة ليجتمعوا في مدينة
جديدة تنبى لهم في أرض مهماته .

وفي كل مدينة أربعة أحياء « أقسام » لكل قسم
سوق خاصة به تضع فيه كل أسرة ما أنتجته ، فيذهب

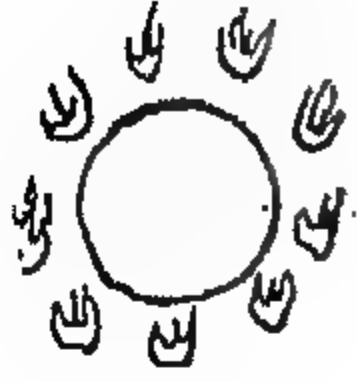
أرباب الأسر ليأخذ كل منهم ما تحتاجه أسرته دون أن يطالب بثمن يدفعه أو ضريبة يؤديها .

وفيم المال والضريبة ؟ ليس المحصول الناتج أكثر مما تقتضيه حاجة الناس ؟ إذن : فليأخذ كل منهم ما يريد ، ولا محل للخوف من طمع يفزي الناس بأخذ ما يزيد عن حاجتهم لأن كل فرد يوقن يقينا لاشك فيه أنه لن يتعرض يوما للحاجة والفاقة ، فما الذي يفريه بالطمع ، إن صنوف الحيوان قد تخشى الحاجة والجوع فتكدس من القوت ما لاحاجة لها به في وقتها الراهن ، ويضيف الإنسان الى خوفه من الجوع زهوه وكبرياءه بكثرة ما تملكه يداه . ولكن أرض يوتوبيا لا تعرف معنى الحاجة لكثرة انتاجها بسبب اشتغال أهلها جميعا بالانتاج ، ولا تعرف معنى الزهو بكثرة الاملاك لأنها فرضت بين الناس المساواة في كل شيء .

واذا ما حان موعد الطعام نفخ في صور ليخف الناس الى قاعات فسيحة تسع أفراد القسم جميعا حيث يأكلون معا طعاما واحدا ، أعدده طهارة شعبيون . ويجوز لمن يريد أن يحتجز لنفسه ما يريد من الطعام ليأكله في داره على حدة .

ومن تقاليدهم أن يججز أولا طعام المرضى ليرسل لهم في مستشفياتهم ، وطعام الغرباء الذين قد يزورون بلدهم حينما يعبرون حين . .

وتبدأ كل جلسة بقراءة شيء مما بحث على الفضيلة . ولرؤساء الأسر الحق الاول في الحديث على الموائد ، ليستمع الى حديثهم سائر الافراد ، على أن واجب هؤلاء الرؤساء أن يستحثوا الشبان على الحديث ليعودوهم الجراءة وحسن الكلام .



على من يريد السفر الى بلد غير بلده أن يستأذن الدولة في ذلك ، لتسمح له بالامد الذي يجوز له أن يقضيه في رحلته ، وليس هناك ما يدعو المسافر الى أن يصطحب زادا ، أو متاعا ، فأينما حل فهو بين أهله وعشيرته على شرط ألا يمكث بغير عمل في مكان ما أكثر من يوم واحد ، فان أراد البقاء أكثر من ذلك كان حتما عليه أن يزاول مهنته على الفور . فان زاد الانتاج في مدينة ونقص في مدينة أخرى ، سد النقص هنا بالزيادة هناك . وان كان في الجزيرة كلها زيادة في المحصول ، أرسلت الزيادة الى الاقطار المجاورة لتوزع على الفقراء .

وأهل يوتوبيا لا يحبون الذهب ولا يسعون اليه ، وهم يقومونه بقيمته في الصناعة فلا يجدونه مساويا

سليمه الحديد : انهم يذرون لماذا تخلع الامم على الذهب والفضة قيمة ليست لهما بحكم طبيعتهما ، ويرون ان الطبيعة أم رءوم ، بسطت كفها فيما يفيد قزودتنا بما لا ينفد من هواء ، وماء ، وأرض ، وقبضت كفها في التوافه التي لا تنفع ودستها في باطن الارض ، كما فعلت بالذهب والفضة

ولقد خشى اهل يوتوبيا أن ينخدع بعض الناس ببريق الذهب فيأخذون في جمعه وتحصيله ، فقرروا أن تصاغ منه قيود المجرمين وأغلال المساجين ، فعقاب هذه الجريمة قرط من ذهب يعلق بالأذن ، وعقاب تلك الجريمة حلقة من ذهب يخزم بها أنف المجرم ، أو عقد يطوق به عنقه ، أو سوار يدور حول معصمه .

بهذا أنزلوا من قدر الذهب والفضة حتى أصبحت علامة التحقير وموضع السخرية والازدراء .

وأما سائر الجواهر الكريمة فشأنهم فيها أن يحلى بها الاطفال ، حتى اذا ماشب هؤلاء عن الطوق ألقوا بها كما يلقي أطفالنا بلعبهم ، ويأنفون اللعب بها حتى يشبوا أنهم قد تركوا مرحلة الطفولة .

ولقد حدث ذات مرة أن بعثت بعض الدول الاجنبية بسفرائها الى أرض يوتوبيا ، فرأيت بعينى رأسى كيف استقبلهم الناس هناك ..

جاء السفراء مثقلين بأحمال من الذهب في أعناقهم وعلى صدورهم ظنا منهم أن ذلك يرفع منزلتهم ومنزلة أمتهم في أعين الشعب ، فلشد ما دهشوا حين ألقوا الذهب هناك سمة المجرمين وشارة الاطفال ، فما لبثوا أن ألقوه حتى لا يكونوا من الناس موضع السخرية .

وقد سمعت طفلاً وقف الى جانب أمه أثناء مرور
موكب السفراء يصيح قائلاً :

— انظري يا أماه ، كم بلغ هذا الرجل من السن وما زال
يتعلق بلعب الاطفال !

فأجابته الأم قائلة :

صه يا بنى فلعله تابع من أتباع السفراء جاءوا به
ليكون منهم موضع الضحك والساوى ..

ان أهل يوتوبيا ليأخذهم العجب من رجل تبلغ به
البلاهة والجنون حد الغبطة ببريق حجر كريم ، فان
كان غرضه البريق المتلألئ فلماذا لا يملأ بصره برؤية
الشمس والنجوم ؟ ..

ولشد ما يدهش سكان يوتوبيا حين يسمعون ان
أهل البلاد الأخرى يقيسون منزلة الرجل بمقياس
نسج رداءه ، فان كان دقيق الغزل كان الرجل شريفاً
نبيلاً ، وان كان غليظه ، كان من السوقة والعامه ، وهم
يتساءلون في عجب :

أما يدري هؤلاء أن الصوف الذى صنعت منه
الملابس — رق غزلها أو غلظ — كان يغطى جلد خروف
بعينه ، وان الخراف فى منزلة سواء ، فلا امتياز
لصوف على صوف ؟

يعجب أهل يوتوبيا كيف تؤدي الغباوة بالناس الى
تقويم الذهب — مع ان الذهب بطبيعته لا نفع فيه —
تقويماً يبخلون به على بعض أفراد الانسان ، وكان
ينبغي أن يكون الذهب أداة مقدورة أن يستدل من هم
أحكم منه وأعقل اذا كان فى حوزته كومة من الذهب ،
فان تحولت كومة الذهب الى خادمه ، أصبح الخادم

من فوره سيدا ، والسيد خادما . .

وأعجب العجب عند أهل يوتوبيا أن يحترم الناس
الفنى لماله ، مع أنهم على يقين من أنهم لن يكسبوا من
ماله مليما واحدا .

عرف أهل يوتوبيا كل ذلك فيما لقنوه في المدرسة
وفيما قرأوا من الكتب التى يؤلفها ذوو الكفاية
العقلية في أوقات الفراغ التى أشرنا اليها .

وأهم ما ينعنون بدراسته ، سعادة الانسان . والرأى
عندهم أن ينشد كل انسان سعادته على شرط ألا نفرينا
سعادة صغرى فتفقد بسببها سعادة أكبر منها . . وهم
يعدون من علامات الجنون أن يجد انسان سعادته فى
اذلال غيره ، كأن يطالبه بالركوع بين يديه أو بالانحناء ،
أو يلبس رداء ، أو بخلع رداء .

ماذا يفيدك أن تكلف غيرك مثل هذا ؟ أ يخفف ذلك
من آلامك التى تشعر بها ؟ الآن أبالك أو جدا من أسلافك
أورثك أرضا يكون من حَقك أن تكلف سواك بما يؤذيه
ولا يفيدك ؟ وماذا أقول فى أولئك الذين يملكون ثروة
أضخم مما يتطلبون .

ان الفتى الذى يملك أكثر مما يحتاج يخزن ثروته
ويحرص عليها ألا تتسرب الى أيدي سواه ، فأى فرق
بين مال مخزون ومال معدوم ؟

وانظر الى هؤلاء الاغنياء يقتلون فراغهم فى الصيد ،
فخبرنى بربك ما لذة الصيد ؟ دعك من الاذى الذى
يصيب الحيوان فى غير مبرر ولا طائل ، وحدثنى ، لم

يسر الانسان أن يتابع كلب أرنباً ؟ ان كانت اللذة في رؤية الكلب وهو يجرى ، فلماذا لا يتابع كلب كلباً آخر ؟ وأما ان كانت المتعة أن يرى الأرنب قتيلاً منهوش الجسد فأى نفس هذه التى تلتبس لذتها في منظر البريء يسحقه المعتدى ، والضعيف يفتك به القوى المفترس ؟ ان اهل يوتوبيا ليستنكرون ذلك ، ولا يجيزون لأحد منهم أن يسفك دم الحيوان . بل ان ما يذبحونه لطعامهم يكلفون المجرمين بذبحة خشية أن يتحول القتل الى عادة فيفسد بذلك واحد منهم وتميل نفسه الى الشر .

أما سعادتهم فيقسمون أسبابها قسمين :

سعادة روحية يلتبسونها في البحث عن الحقيقة ، وسعادة جسدية يجدونها في الاحتفاظ بصحة الأبدان

وهم لا يقرون وجهة النظر التى تحتقر الجمال ، وتبدد قوة الجسد بالصوم والتقشف ، وما اليهما ، فليس من الحكمة عندهم أن ترفض اللذائذ مخدوعاً بأن ذلك هو الفضيلة ، أو أن تعرض نفسك للألوان من الشقاء والألم ، لتثبت أنك قادر على احتمال الصعاب ، فذلك في رأيهم قسوة وجنون .

ولما كان اهل يوتوبيا يعنون كل هذه العناية بصحتهم . فأنت تراهم خفافاً سراعاً يمتلئون نشاطاً وقوة ، وكان من أثر ذلك قدرتهم على استثمار أرضهم أضعاف ما تستثمر الأقوام الأخرى أراضبها ، مع ان تربة بلادهم ليست شديدة الخصب . . ولن تجد شعباً أطول من اهل يوتوبيا أعماراً وأقل تعرضاً للأمراض ، وكلهم مرح رقيق سريع ذكى هادئ قادر على بذل

مجهود عضلى عظيم اذا اضطره الموقف الى ذلك . ولكن حياتهم قلما تضطر أحدا على الاجهاد ..

سمعنى أهل يوتوبيا أتكلم اليونانية فألحوا فى تعلمها فعلمتهم اياها ، لا لأنى أعتقد فى نفعها لهم ، ولكنى أردت أن أؤدى عملا ما فى تلك الأرض التى لا تعرف البطالة معنى .. فلم أكد أمضى فى تعليمهم حتى أخذتنى الدهشة من سرعة تقليدهم للنطق الصحيح وحفظهم للكلمات والعبارات .

ولم تمض سنوات ثلاث حتى كان فى مقدورهم أن يقرءوا ما أرادوا من الكتب اليونانية .. فاستعاروا منى كثيرا من كتبى ، وبخاصة كتب افلاطون وارسطو ، وكان عندهم عدد كبير من مؤلفات بلوتارك ، وأرستوفان وهومر ، ويوريبيدو وسوفوكليز ونيوسيديه ، وهيرودوت .





العبيد والمرضى والعلاج

كل من أجرم أصبح عندهم عبدا رقيقا يكلف بأشق الاعمال ويعمل عملا متصلا لا ينقطع ، ولا تحل عنه الاغلال مادام عبدا ، وهم يبررون هذه القسوة بقولهم أن هؤلاء المجرمين قد نشأوا في بلد هيأ كل فرصة ممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون ، فان أغرت الرذيلة أحدا بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق أن يستدل في غير رحمة .

وأما المرضى فيلقون منهم عناية ورعاية وعطفا ، فأهل يوتوبيا لا يألون جهدا في معالجة مرضاهم . فان أصيب المريض بعلّة لا يرجى شفاؤها وجدتهم يسارعون الى

مجالسته ومؤانسته ليرفها عنه . أما ان كانت العلة
تسبب للمريض ألما فضلا عن استعصائها على البرء ،
فان القساوسة ورجال الدولة يأخذون في اقناعه بقتل
نفسه حتى يتخلص من ذلك الألم الممل لأنه فوق ألمه
يؤلم سواه ، ولا يعمل للدولة عملا مفيدا . ولكنهم
لا يجبرون المريض على الموت اجبارا بل يقنعونه به حتى
يستل روحه بيده ، أو يسمح لغيره أن يفعل ذلك وهو
غارق في نعاسه ..

أما من يقتل نفسه دون أن يأذن له القساوسة ورجال
الدولة ، فهو لا يستحق منهم دفنا أو احراقا ، ولذا
تراهم يلقون جسده في مستنقع كربه .

أما الزواج فلا يؤذن للمرأة به قبل الثامنة عشرة ،
وللرجل قبل الثانية والعشرين . والزواج متى تم عقده
بين الزوجين لا ينقسم الا بالموت أو الزنا أو بأن يسلك
أحد الزوجين سلوكا غير محتمل ، وهم لا يجيزون قط
أن يطلق الزوج زوجته لأن مرضا أصابها ، إذ يرونها
قسوة وحشية أن تهجر أنسنة في رقت هي فيه أحوج
ماتكون للمعونة والسلوى .

ويجوز الطلاق ان أراد الزوجان ذلك ، ما دام كل
منهما قد وفق الى شريك أصلي من شريكه الراهن ،
على أن يعرض مثل هذا الامر على مجلس الشورى .

وأهل بوتوبيا قد تواضعوا على ازدراء المرأة التي
تحتقر الجمال الطبيعي فتقلده بالاصباغ وألوان الطلاء ،
وقد علمتهم التجربة ان حب الزوج لزوجته لا يتوقف
على خلاصة الوجه بقدر توقفه على الشرف والفضيلة ،
فان كان الجمال يبعث على الحب باديء ذي بدء ، فلا شك
في أن فضيلة المرأة وطاعتها لزوجها هما اللذان

يعملان على بقاء الحب ودوامه . وهم لا يرددون أبناءهم
عن فعل الرذيلة بالعقاب ، ولكنهم يحبونهم في الفضيلة
بالجزاء والثواب ، وهم فوق ذلك يقيمون في ساحة
السوق تماثيل العظماء الذين أحسنوا للدولة صنيعة ،
حتى يمثلوا في ذاكرة الناشئين ويحفزونهم الى خدمة
بلادهم واصطناع الفضيلة فيما يفعلون .

المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم
لبعض ، ولا فضل لرئيس على مرعوس ، فلا زهو ولا
كبرياء . ولا يتميز أميرهم بلبس الحرير ، أو الذهب ،
بل شارة الملك عندهم سنبله قمح يحملها رجل أمام الملك .

وقوانينهم قليلة العدد جدا ، لأن شعبا بلغ ما بلغه
أهل يوتوبيا من التقدم لا يحتاج سوى قليل من مواد
القانون .

وهم يعيبون على سائر الشعوب أن تطنب في قوانينها
وتظل حتى تملأ بها المجلدات الضخام التي لا يجد أفراد
الشعب من فراغهم وقتا لمطالعتها ، وأن هم طالعوها
ألفوها أعمق من متناول أفهامهم وأغمض .

وهم لا يجبرون أن يلجأ أحد الى محام يدافع عنه
أمام القضاء ، فكل امرئ هنالك يحفظ القانون ،
ويدافع عن نفسه .

وهم لا يؤمنون بالمعاهدات بين أمة وأمة ، إذ يعتقدون
أن الإنسان بطبعه محب الأخيه الإنسان ، وأن لم يكن
كذلك فلن تجدى كلمات مكتوبة نفعا في تعليمه ذلك
الحب .



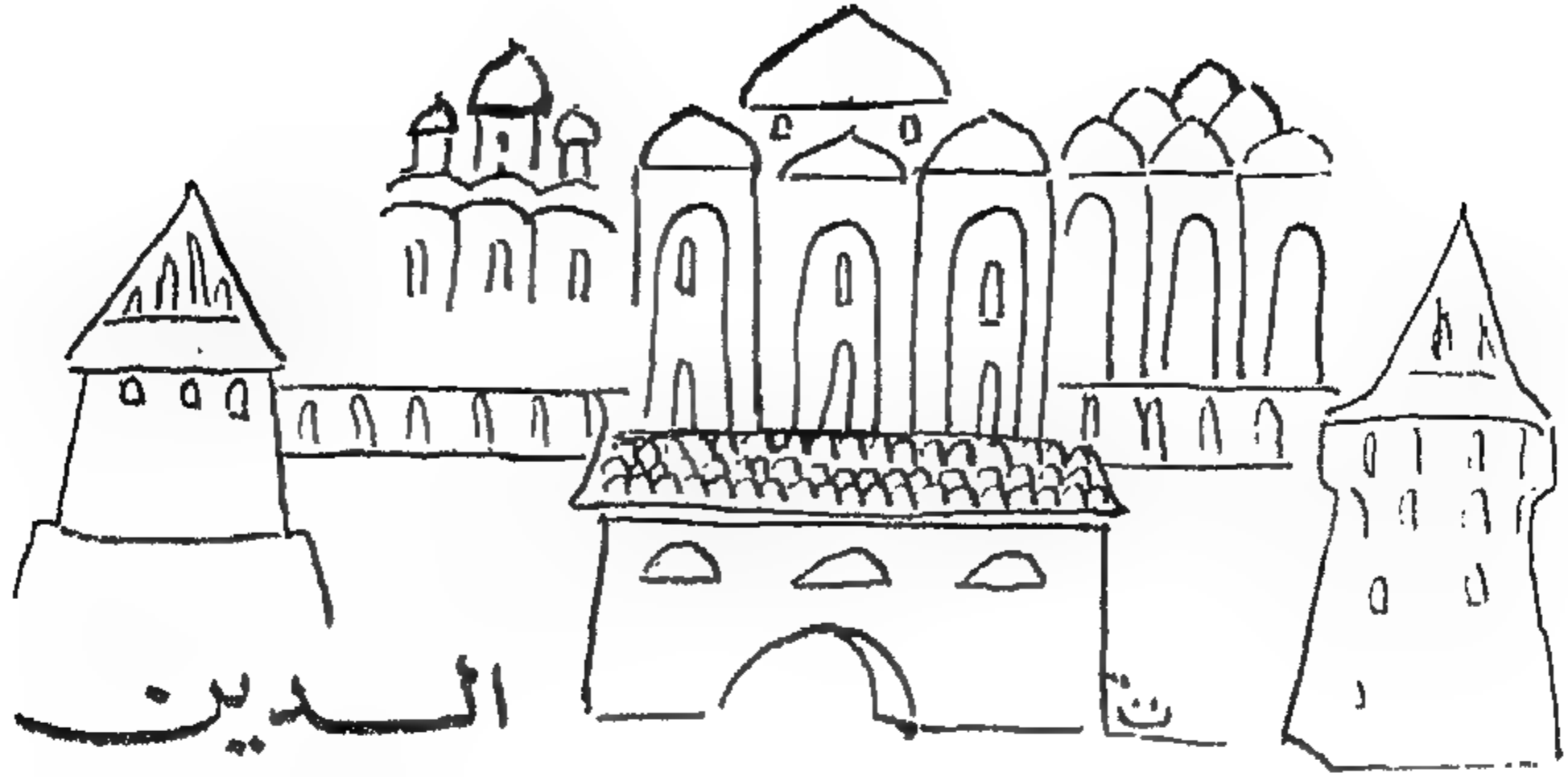
وأهل يوتوبيا يمقتون الحرب مقتا شديدا ، لأنها
نكسة بالانسانية الى حيث الهمجية المتوحشة ، وهم
لا يعدون النصر في الحروب من ضروب النصر .

ولكنهم على الرغم من ذلك يدرّبون أبناءهم جميعا ،
رجالا ونساء على المقاتلة كي يخفوا الى صد العدو اذا
هاجمهم عدو ، أو يدرّءوا عن أصدقائهم الخطر ان
دهمهم خطر ، أو يحرروا شعبا أرهقه الذل والاستعباد
لأنهم يطمعون أن يكونوا حماة الحرية والأخاء .

وتراهم مع ذلك يكرهون أن يدحروا أعداءهم بسفك
الدماء ان أفلحت وسيلة غير ذلك ، وهم يعدون أكبر
النصر وأدعاه الى الفخر أن يردوا كيد المهاجمين بالحيلة
والخداع ، والذكاء والدهاء ، فان وفقوا في ذلك رأيتهم

يقيمون انصاب النصر في كل مكان ويفرحون ويمرحون
لأنهم يؤمنون بأن نصر الذكاء وحده هو الجدير بالإنسان،
وأما حرب الجسد للجسد والفتك واراقة الدماء ،
وازهاق النفوس ، فتلك وسيلة في مستطاع الاسود
والذئاب والكلاب ، وكل ذى ظفر وناب .





فى أرض يوتوبيا ضروب متنوعة من العبادات والعقائد ،
فمنهم من يعبد الشمس ، ومنهم من يؤله القمر ،
وهكذا الى آخر ما تسمع به من ألوان الدين ..

ولكن هؤلاء مجموعات قليلة العدد ، وأما الكثرة
الغالبة هنالك فتعتقد فى اله قوى قادر أبدي خالد ،
واليه ينسبون الخلق وما يصيب الأشياء والأحياء من
تغير وتفسك وانحلال . ويظهر أن ضروب الديانات
الأخرى آخذة فى التقلص أمام هذه الأخيرة لأنها تبدو
لهم أقرب الى المعقول .. وما كدت أقص عليهم نبأ
الديانة المسيحية فى أرضنا حتى أقبلوا على اعتناقها
زرافات وأفواجا ، لماذا ؟ .. لأنها تبشر بمذهب
الشيوعية التى تمحو فوارق المال بين الرجال .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن رجلا
منهم أخذته الحماسة فى اعتناق المسيحية حتى انطلق
يهجو سائر الديانات ، فأنزلت به الدولة عقابا صارما
ولم تلبث أن أبعدته عن أرضها ، لأنه يثير فى الناس

الفتنة الدينية ، وليس أشد من الفتنة عندهم شناعة
واجراما .

هم يبيعون لكل انسان أن يعتنق ما يشاء من
العقائد ، وأن يبشر الناس بمذهبه ما استطاع ، على
شريطة أن يكون ذلك في غير اعتداء على سواه ..

ولعل ذلك أول قانون سنه لهم مؤسس الجزيرة ،
الملك يوتوبس حين أقبل على تلك البلاد فوجدوها ممزقة
بالخلاف الديني ، بل أن ذلك الخلاف نفسه هو الذي
مهد له النصر والغلب ، فشرع لهم الحرية في الدين .
فان لم يستطع الرجل أن يقنع غيره بالقول والحجة ،
فلا يجوز له قطعا أن يلجأ الى القوة والارهاب

وليس بين أهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة
الدين كي يجعل الدين مهنة وصناعة ، إذ الشائع عندهم
أن السعادة في الدار الآخرة مرهونة بشيء واحد ، وذلك
أن تنفق هذه الحياة الدنيا في عمل مثمر منتج .

والايام المقدسة عندهم ، أول كل شهر وآخره ..

وأما الكنائس فجميلة البناء ، رائعة المنظر ،
فسيحة الأرجاء ، تسع عددا كبيرا في وقت واحد ،
وهي معتمدة بعض الشيء في داخلها ، لأنهم يرون أن
شدة الضوء توزع الانتباه ، وهم حريصون على أن يركز
المصلون انتباههم في صلاتهم

والكنائس أعدت بحيث تلائم العقائد على اختلافها ،
فليس فيها شارات لدين بعينه ، ولذا فالناس جميعا
يحتشدون في بيوت الله جنبا الى جنب ، وإن اختلف
الاله المعبود ، كل يصلى لربه ، وذلك ليؤاخوا بين
العقائد ما أمكن ذلك

وهم يذهبون الى بيوت الله في آخر الشهر ليرفعوا
الحمد لله على أن انقضى شهرهم بخير ، وفي أول الشهر
ليدعوا الله أن يفرهم ببركته في شهرهم المقبل

ولا يجيز أهل يوتويا ذبح الذبائح لأنهم يعتقدون أن
رحمة الله أوسع من أن يستنزلها سفك دماء الحيوان
الذى ما خلقه الله الا ليحيا

تلك هى يوتويا - الدولة المثلى - التى اشاعت كل
شئ بين الناس جميعا ، فلا تعرف ما الفقر ، وما معناه
ان أحدا منهم لا يملك لنفسه شيئا ، ومع ذلك فكل
الناس أغنياء . ولم لا يكون غنيا من لا يعنيه أمر
معاشه فى غده ، ومن لا يؤرقه هم أبنائه وبناته خشية
أن يصيبهم الفقر والتشريد بعد موته ؟

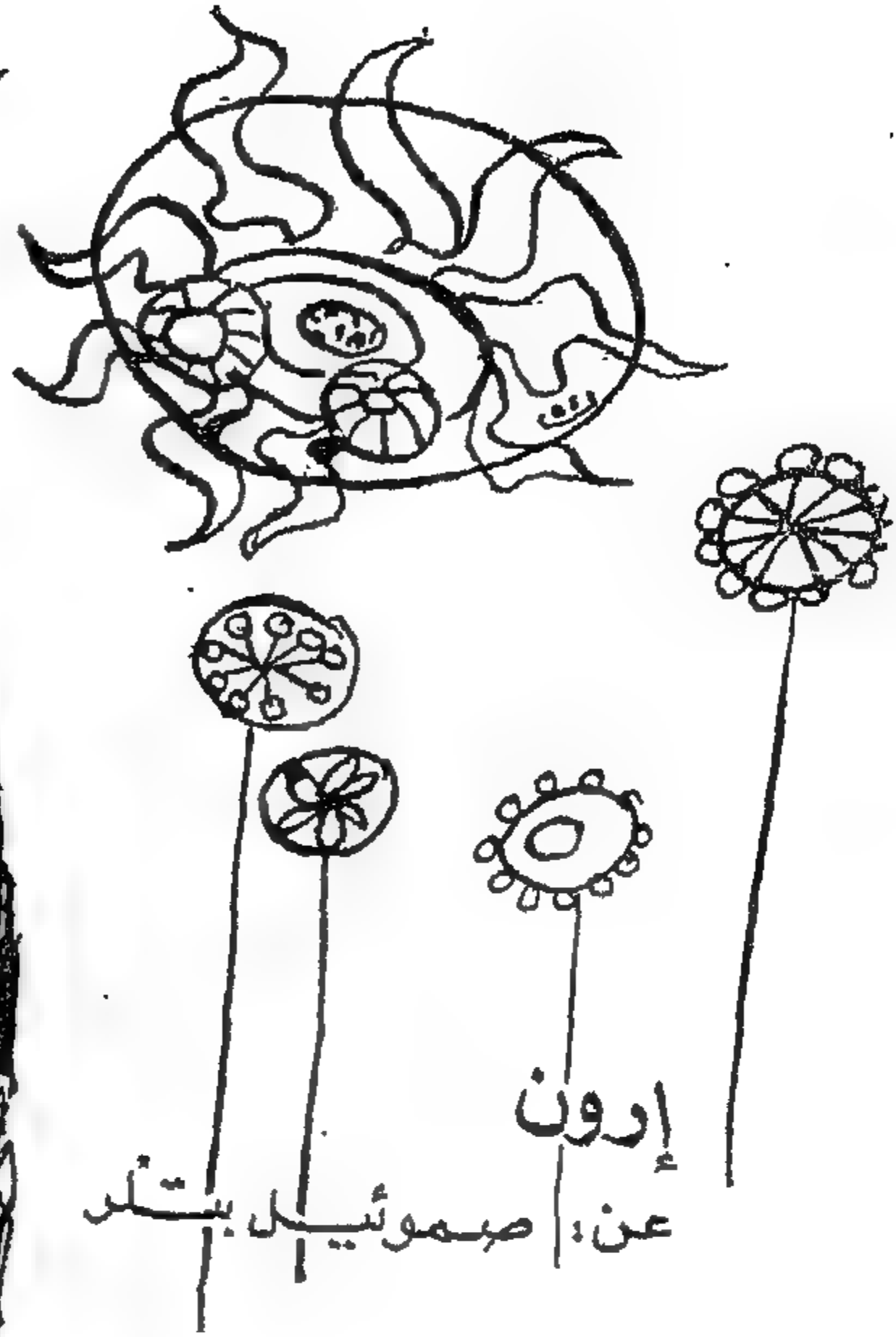
من ذا يجرؤ أن يدعى بأن بلادنا تعرف العدل بمعناه
الصحيح ؟ من ذا يؤعم ان العدل يسود بيننا وهو يرى
تحت أنفه ان الاغنياء لا يعملون شيئا ، أو قل لا يعملون
عملا مفيدا لأنفسهم أو لأمتهم ؟ فأى عدل يجيز أن
يستمتع هؤلاء بالمال الوفير . بينما العمال من زراع
وصناع ، الذين يكدحون كدحا مضنيا ، والذين لولاهم
لما قامت للدولة قائمة ، يعيشون فى ذل وبؤس وفقر ،
انهم يعيشون فى بؤس لا يعرفه الحيوان الاعجم ، لأن
الحيوان لا يعمل طوال يومه ، ولأن الحيوان لا يضنيه
التفكير فى غده ، كما يشقى العامل الفقير المسكين حين
يفكر فى سن الشيخوخة ، ويسائل نفسه : ماذا أنا صانع
فى شيخوختى التى ستعجزنى عن العمل ، فلا أجد
ما أقتات به ؟ ان أجور هؤلاء العمال لا تكاد تسفى سد
الرمق فى حاضرهم ، فكيف بهم فى مستقبلهم ؟

أليست بلادنا قاسية ظالمة حين تكيل المال كيلا
للسادة الذين لا يعملون شيئا ، ثم تغل يدها الى عنقها
حين تؤجر الجارث ، والصانع ، والعامل ، الذين لا دولة
بغيرهم ؟ فان تقدمت بهؤلاء السن ، وعجزوا عن كسب
القوت ، نسيت الدولة ما قدموه لها في سن الشباب
من خدمات ، وتركهم يتضورون جوعا ومرضا ،
ويموتون هملا لا يأبه لهم انسان

الا ما أبعد الشقة بيننا وبين أهل المدينة الفاضلة ،
الذين اقتلعوا المال من جذوره ، فانمحت أسباب
الشقاء والفقر

فلما اكمل روفائيل قصته عن ذلك البلد السعيد ،
كان الوقت قد حان للعشاء ، فاصطحبته الى المائدة ،
وتواعدنا أن نتلاقى مرة أخرى لنبحث في تلك النظم
التي روى لنا نبأها ، والتي لا أوافق على بعضها ،
ولكني لا أجد لنا محيضا عن بعضها الآخر أن أردنا
أن نحيا حياة هائلة سعيدة .

ختام



● نبذة عن حياة صموئيل بتلر

ولد بتلر عام ١٨٣٥ من أسرة دينية في إنجلترا ، وتلقى علومه في كامبردج . وقصد أولو أمره أن ينخرط في سلك رجال الدين ، ولكنه أثر لنفسه رعى الأغنام وتربيتها في زيلنده الجديدة ، وقد عاد إلى إنجلترا عام ١٨٦٤ ، حيث أخذ يكتب المقالات الفكاهية يتهم بها على نظرية دارون التي درسها دراسة دقيقة .

(★) هذه الكلمة قلب لكلمة Nowhere ومعناها « البلد الذي لا وجود له » ، وتلك مبالغة من الكاتب في أنه سيصف بلادا لا وجود لها .

وهذا الكتاب الذى نحن بصدد ختمه من سسده
تهكمه المرير الذى أخذ يصبه على نظام المجتمع تارة ،
وعلى رجال الدين طورا ، وعلى العلم وأصحابه طورا
ثالثا ..

وسترى انه نقد للنظام القائم فى خيال خصب عجيب
يستوقف النظر ويستثير التفكير والتأمل فى كل موضع
من مواضعه ، فهو نقد لما هو كائن ، أكثر منه بناء لما
يجب أن يكون .

ومن أوضح معالم الكتاب ، التى نحب أن نشبتها
قبل قراءة خلاصته ، لتعين القارئ على جودة الفهم ،
انه يعرض نظاما عجيبا يخيل عند قراءته انه نظامنا
القائم بعينه ، وتلك لعمري أفعال وسائل النقد .

وهو ينادى فى هذا الكتاب بوجوب الاعتدال فى
استسلام الناس الأحكام العقل ، واستماعهم الى صوت
الغريزة والبصيرة الفطرية ، فانكارهما انكار لطبيعة
الانسان وقوام وجوده ، وهما نتيجة سلسلة متصلة من
التجارب الصحيحة .

فهو حين يتناول لفو الحياة بالتحليل والتعليل ،
تراه ينزع منزع الفلاسفة المثاليين وينكر الفلسفة المادية
انكارا قاطعا . فالتطور - مثلا - فى رأيه صحيح ولكن
على شرط أن يفهم كما فهمه برجون من أن هناك قوة
خفية تسعى للوصول الى غرض معين ، وتلك القوة
الخفية هى الحياة نفسها ، لا كما فهمه دارون من انه
خاضع للانتخاب الطبيعى الذى يقوم على المصادفة
الآلية وحدها ، تلك المصادفة التى لا تعرف فرضا
سوى صلاحية البقاء .

ومما أخذ يبشر به بتلر منذ شبابه أن يأخذ الناس

بديانة عقلية ، وستراه في ارون يصب من السخريّة على رجال الدين حين يصورهم وكأنهم قلبوا الكنائس الى مصارف يتعاملون فيها كما يتعامل أصحاب الاعمال في البنوك ، غير ان الصكوك في مصارف الكنائس صكوك تدر الربح في الحياة الآخرة .

وهو يرى ان أساس الدين واه ضعيف ، ولذا لجأ الى التشاؤم والجبن وسهولة التصديق .

نعم ، ان بتلر لا يريد أن يسود العقل الصرف في الدين ، بل يحب أن يمازجه شيء من التصوف الى جانب شيء من الاوهام التي تبعث في النفس مشرق الامل دون أن تعود على الانسان بالضرر ، ولكنه يحتم أن ينبع ذلك التصوف وهذا الوهم من باطن النفس والا يفرض عليها فرضاً

وستراه في هذا الكتاب يمزج التفاؤل بالتشاؤم حتى يخفف أحدهما من حدة الآخر ، فهو متشائم حين يعرض هذه الفكرة الخيالية البديعة التي يقول فيها ان الاجنة قبل مجيئهم الى هذا العالم كانوا يعيشون في عالم الخلود ، ولكن الففلة الحمقاء أثارت في بعضهم رغبة المجيء الى دنيانا فراحوا يوسوسون للزوج أن يلاقى زوجته ، مع ان الاحياء يمقتون الحياة ولا يحبون دوامها وتكرارها لولا هذا الاحراج ممن لم يولدوا بعد .

فأنت تقرأ بتلر في هذا فيخيل اليك أن شوبنهاور يتحدث من جديد . . . ولكن بتلر يعود فينثر لمحات من التفاؤل حين يقول ان الحياة خير ، لو وفق الانسان بين نفسه وبين الطبيعة ، وهو يستطيع ذلك ان اراد .

ومن أمتع فصول الكتاب ما قاله في الآلات ، وانه

يخشى أن يجيء عصر تطفئ فيه الآلة على الإنسان فتصبح سيدة له وهو عبدا لها ، وأحب أن يقرأ القارئ هذا الفصل على أنه تهكم لاذع لنظرية دارون فسرى كيف يطبق بتلر أصول نظرية دارون في التطور على الآلات فلا يرى مستحيلا أن تتطور الآلة وتسبق الإنسان في تنازع البقاء كما سبق الإنسان صنوف الحيوان وهو بذلك يريد أن يؤيد وجهة نظره بأن أساس التطور محاولة الوصول الى غاية معينة مقصودة وليس الصدفة البحتة كما قال دارون .

وسيقرا القارئ في هذا الكتاب ان أهل دارون يحاكمون المريض لأنه مريض اذ يعتقدون ان المريض مسئول عن علته ، وسيضحك القارئ ملء شذقيه ولكنه اذا تدبر الأمر قليلا علم ان ذلك هو سبيلنا نحن في محاكمة المجرمين ، فالمجرم مريض جاء اجرامه نتيجة عوامل البيئة والوراثة ، وهو لا يسأل عن اجرامه الا بقدر ما يحاسب العليل على علته .

وأعود فأكرر أن يتنبه القارئ لروح التهكم في دارون، والا طوى الكتاب وكأنه لم يقرأ شيئا .



إرون

رحلت الى بلاد بعيدة خصبة المرعى الأربى الماشية
 فأكون من ذوى الثراء ، ولكنى لم أظفر ببقيتى وأن
 كنت قد شأهت فى رحلتى عجباً سأرويه للناس ،
 وسأرويه كارها لأنى أكاد أوقن أن لن يصدق الناس
 ما أقول الا اذا رويت القصة كاملة ، وأنا مضطر ألا
 أرويها كاملة ، لأنى أحب أن أخفى معالم الارض المكشوفة
 حتى لا يسبقنى اليها أحد من أصحاب المال ، وليكن
 عزائى أن الصدق يحمل فى طياته طابعاً يدل عليه ،
 ومهما يكن من أمر هذه القصة فهى تحمل دلائل صدقها .
 بلغت غايتى المنشودة فى أواخر سنة ١٨٦٨ ،
 فوجدتها بلداً لم يفتح أبوابه بعد للبؤاسل المغامرين ،
 ولا يزال يسكنه عدد قليل من الهمج ، يحتشدون فيه
 على شاطئ البحر .

ولكن فئة من المهاجرين الاوروبيين اهتمت فى جواره
 الى قطعة من ذلك الساحل يبلغ طولها ثمانمائة ميل ،

وثعمق في داخل أليابنس الى نحو ثلاثمائة ميل يخذها
جبل شسامخ ينهض على صدر التنهل المعشوشب
وتتوج ذراه الثلوج الدائمة .

وقد استغل جماعة الاوروبيين ذلك السهل الخصيب
المرع فأخذوا يرعون به الماشية ، وانتشروا في بقاعه
حتى امتلأت بهم أرجاؤه .. وفي هذا السهل حطت
رحالى عاملا في كنف واحد من أولئك الرعاة ، وقد
بلغت من العمر اذ ذاك اثنين وعشرين عاما

كان منوطا بى ان اصعد مع الصباح الى شرف من
الجبل لألحظ السائمة فلا تتبعثر في شعاب الجبل ،
ولم تكن تكلفنى تلك الحراسة سوى أن أجلس وأدور
بعينى الحين بعد الحين فتكفينى نظرة واحدة سريعة
الأعلم ان ماشيتى هنالك لم يصبها أذى ، وكنت أظل
في مستقرى ذاك مزودا بما يلزمنى

غادرت أرض الوطن ، لعلى اصيادف بلادا خصيبة
أرعى فيها من الخبز ، واللحم ، والتبغ ، فلا أهبط
الا مع المساء

كانت حياتى تجرى على نسق واحد يوما بعد يوم ،
ولكنها حياة تبعث الصحة والنشاط ، وماذا يعنىك
من الدنيا لو كنت معافى صحيح الجسد ؟ ..

فكم جلست في ذروتى أرسل البصر الى وهاد
الأرض ونجادها ، وقد بدا لى السهل المخضر فى الأفق
النائى مبسوطا حتى ينتهى الى نهر يتألق بريقه حين
ينساب فى سندس النجيل ، وقد شمخت على ضفته
البعيدة سلسلة ناتئة تضرب فى أجواز السماء ، فتارة
تبدو للعين ناصعة البياض تلفها سماء سوداء ، وطورا

تراها داكنة السواد تشق بقممها سماء بيضاء . ولعل
أروع ما وقع عليه البصر منظر السحاب من دونى - حين
كنت أمعن فى الصعود - فكنت أرى قزعة تموج كأنها
أوازي المحيط جزره قمم الجبال الناتئة .

ترى ماذا وراء ذلك الجبل السامق ؟ .. وماذا ان
أخذت زادى وضربت فى الأرض الأستكشف ما وراء
الجبل ؟ .. انى لو فعلت لكان نصرا ما بعده نصر .

وقد عن لى أن أسأل رجلا من اهل الاقليم عما يعلمه
عن الجبل الذى اعتزمت عبوره - اذ تمنيت أن
يصحبني فى رحلتى - فما هو الا أن أعتصرته بعدة
الخوف ، ونهض من فوره يدحرج كيسين من أكياس
الصوف كانا الى جواره ، واعتلاهما وتلفع بكيس فارغ
وجلس جلسة تبعث الرعب والفرع ، يضطبط على
أسنانه ويكشر عن أنيابه ويخرج أنغاما موسيقية عجيبة
من فمه ، ثم هبط الى الأرض يرتعد ويرتعش ويشير
بأصبعه الى الجبل .

ولكن فزعه من الجبل لم يصدنى عن الرغبة فى
عبوره ، بل ازددت الى ذلك شوقا وحماسة ، واشتدت
رغبتي فى اصطحاب ذلك الرجل ، فعرضت عليه أن
يرافقنى فى رحلة قصيرة الى شاطئ النهر ، ولم أذكر
له الجبل الذى يشر فى نفسه ذلك الرعب المخيف ..

وقبل الرجل ، فأعدنا جوادا مسرجا وبعض الفراش
والغطاء ، وما قد أحتاحه من مئونة وزاد ..

مضى اليوم الاول فى طمأنينة ويسر ، وصنادفنا فى
بعض الطريق ألوانا من جمال الطبيعة ، لو حاولت
تصويرها لخانتنى اللغة التى لم تخلق لمثل هذا الجمال
الفاتن ! ..

وجاء المساء ، وضربنا الخيمة ، ومهدنا الفراش ،
ببعض العشب الوثير .. وصحوت في جنح الليل فاذا
المنظر يخلب الافئدة والسكون من حولي ممتع لذيد ،
والنجوم تتألق في صفحة السماء ، والقمر يسطع ناصعا
على ثلوج الجبل .. وأحسست براحة العقل والجسد
راحة لا يعرفهما الا من أنفق بضع ليال في طلق الهواء .

صحونا في صباح اليوم الثاني واستأنفنا الرحيل ،
فكان هذه المرة شاقا عسيرا ، حتى بلغنا الخانق
الضيق الذى يتدفق منه النهر ، ولكن النصب قد
هد أجسادنا ، وأخذ المطر ينهمر مدرارا ، والسحاب
الكثيف يلفنا في أطوائه ..

وهكذا أنفقنا سبعة أيام في صعود وهبوط ، وهبوط
وصعود ، حتى أدركنا آخر الأمر سفحا جميلا سهلا
يهون فيه السير وينعم برؤيته النظر ، وهو سفح الجبل
المنشود ، فأخذت أعلو نحو القمة ، وقد شاع السرور
في نفسى ... ولكنى كم دهشت حين أدت وجهى
الأرى رفيقى ، فوجدته قد عاد مسرعا ، لأن الجبل قد
أثار في نفسه كوامن الفرع ... وخلفنى وحيدا

ماذا أنا صانع فى هذا الموقف الرهيب ؟ أعود والنصر
قد بات منى قاب قوسين أو أدنى ، أم أجاهد لأدرك
غايتى على ما فى ذلك من خطر داهم وعسر شديد ؟ ..
لا ! .. لا بد أن أمضى حتى أبلغ ما أريد إلا أن صادفنى
فى الطريق من الصعاب ما لا قبل لى وحدى به ، عندئذ
فقط أعود مضطرا أسفا ..

ألا ما أشد العزلة على النفس ! ان كل شىء يبعث
الخوف والوجل ، بل ان نغمات الطيور تبدلت الى
صيحات مرعبة .. وما أحلى دقات ساعتي حينئذ !

انها وحدها تذكرنى انى انسان من بنى الانسان ..

أقبل المساء فأخذت فى النعاس ، ولكنى استيقظت فى جوف الليل فسمعت صوتا موسيقيا عجيبا .. ماذا ؟ .. انه يماثل الصوت الذى كان ينبعث من رقيقى حين جالس على أكياس الصوف .. وما هى الا أن فى الصوت فحمدت الله واستأنفت النعاس

اشتدت الوحشة وثقل الهواء ويبست الارض ، واعترانى شعور عجيب ، وهو انى فقدت شخصيتى ، أعنى ان ماضى حياتى قد تفككت عراه التى تربطه بحاضرى .

ولعل هذا الشعور أول علائم الشرود الفكرى الذى يصيب من يضلون الطريق .. وأخذت أجاهد وأكابد عناء السير ، حتى شهدت على صفحة الثلج آثارا لأقدام كادت تذوب وتنمحي ، فأحسست مزيجاً من شعور الفبطة وشعور الخوف ، ومضيت فى طريقى أتحمس وقع القدم فى حذر شديد ، لأن الضباب الكثيف قد أعتم أمامى الطريق ..

ما هذا الذى أرى وسط الضباب ؟ .. اننى بازاء حلقة من أشباح جبارة قائمة تشق برءوسها أستار السحاب المسدلة ! .. فلم أكد أتبين هؤلاء الأشخاص المروعة حتى تولتنى قشعريرة عنيفة لم أدر معها شيئاً مما حولى ، ولعل اغماءة قد غشيتنى لحظة ، ثم أفقت مرتعداً فاذا بى ملقى الى جانب هذه الجماعة من الأشخاص الساكنة الصامتة . وشاءت رحمة الله أن يمر بذهنى خاطر عجيب ، وهو أن أعد من واحد الى خمسين ، محدقا بنظرى الى تلك الاشباح ، فان لم يتحرك أحدها رجحت أن تكون مجموعة من التماثيل ؛

وعددت ما أردت مرتين فلم ألمح فيها حركة ،
فتقدمت في فرع المسها من أطرافها لأثق مما رجحت
حتى القلب ظنى يقينا وأزيح عن صدرى ذلك الكابوس
المخيف . انها مجموعة من التماثيل صفت وقد أجلسني
على سور من الصخر جلسة تماثل الجلسة التي اصطنعها
رفيقي على أكياس الصوف ، وعلى وجوهها نفس الملامح
البشعة التي كان قد مثلها الرجل في جلسته ..
وما هي الا أن هبت موجة من الريح العاصف ،
فلشد ما دهشت حين وجدت الريح في تخللها رءوس
الاشباح ، الخاوية تعوى كأنها الذئاب ، أو تن أنينا
مروعا ، فلا تسل كم خارت قواى عندئذ ، ولكنى رغم
ذلك انطلقت أعدو في أطباق الضباب المنشور ، حتى
غابت الشخوص عن البصر .

بلغت خانقا في الجبل نفدت خلاله الى السفح ،
فأسرعت هابطا ولكن الفرع لا يزال بشيع في نفسى ،
وترتعد له فرائصى ، ترى هل أقبل على قوم همج
يذبحوننى ضحية لأربابهم تلك ؟ .. لا ! .. انى أرى
هنالك جسرا ، والهمج لا يبنون الجسور ، فلا شك انى
قادم على قوم أخذوا من المدنية بقسط موفور ..

طفقت أهبط سفح الجبل ، ولم تلبث شمس الاصيل
أن سطعت بالدفع والنور ، فما أحلاه من دفع ، وما
أجلاه من نور بعد الذى قاسيت من برد ، وعانيت من
ضباب وسحاب !

هأنذا أرى سهلا مريعا قد انتشرت فيه المدائن ،
وازدهمت فيه المباني ذات المآذن والقباب ، فاستبشرت
خيرا واستلقيت في فء شجرة - وكان قد هدنى المغوب
- ففرقت في نعاس عميق أيقظتنى منه أجراس ترن ،

فشخصت بناظري واذا بي ارى فتاتين جميلتين كانتا
سائرتين ، ولم تكدا ترياننى حتى تولاهما الدهش ،
وأخذتا تحدقان فى تارة ، وفى بعضهما تارة أخرى ، ثم
صرختا صرخة عالية وتولاهما فزع وخوف فانطلقتا
تعدوان ، ولم تمض ساعة حتى عادت الفتاتان ومعهما
شرذمة قليلة من الرجال ..

وأول ما استرعى منى النظر هذا الجمال الفاتن فى
النساء والرجال على السواء !.. رأيتهم فنهضت أتوكأ
على عصاى ووجهت خطابا بالانجليزية الى أحدهم -
وان كنت موقنا انه لم يفهم عنى شيئا - فقلت اننى لا
أدرى ما هذا البلد الذى أدركته بالمصادفة بعد رحلة
مليئة بالعسر والخطر ، واننى طامع فى رحمتهم وعفوهم
فأشار الى الرجل أن اتبعهم ، ففعلت .

ولم تمض بضع دقائق حتى بلغنا قرية صنفيرة
ازدحمت دورها وضافت طرقها ، فكم أثار قدومى فى
القوم من دهشة ، ولكنها دهشة تمازجها الرقة والخلق
الكريم ، فأكرموا مثواى وقدموا لى العشاء لحما
ولبنا ، وبلغت منهم الدهشة أشدها حين رأونى أدخن
الغليون وأقدح الكبريت .. أما أنا فقد أحسست نحوهم
بإعجاب وإكبار لما لمستهم فيه من هدوء فى الطبع وكمال
فى الخلق ، واستوقف نظرى أن أراهم يأكلون على النمط
الأوروبى مع اختلاف فى أدوات الأكل وحدها ، وان تأثيث
الغرفة يجرى على أسلوب انجليزى محض . فسألت
نفسى :

ترى من يكون هؤلاء القوم؟ أيقنون هم قبائل إسرائيل
التائهة ، لا يزالون أحياء فى هذه الأرض المجهولة

يرقبون العودة الى فلسطين ؟ ولكنى لم ألمح فيهم أثرا
للدين ، فلمعت في رأسى فكرة قوية أهديهم الى الدين
القويم فأنعم بالدارين وأكون من الأولياء الصالحين ؟

أكلت طعام الافطار فى صبيحة اليوم التالى ..

ثم أشار الى بعض القوم فتبعتهم فى رحلة لست
أعلم مداها ، فشققنا طريقنا فى الجبال الثلوجة تارة ،
وفى جوف الغابات طورا وعلى السهول البسيطة مرة ،
ونمر بالقرى الحين بعد الحين .. ولم أزل معجبا أشد
الاعجاب بهذا الجمال الفاتن الخارق الذى يمتاز به أهل
ذلك الاقليم ، فالنساء أصحاء أشداء رافعات الرءوس
ناهديات الصدور يشع منهن الجمال والجلال ، وللرجال
روعة وفخامة تأخذان باللب والبصر ، وقد اجتمع فى
أجسادهم الجمال المصرى الى الجمال اليونانى والإيطالى ،
وأطفالهم يمتلئون صحة ونشاطا ، ولا تقع العين من
أقصى الارض الى أقصاها على انسان قدر يمججه النظر .

وانتهى بنا المطاف الى مدينة كبيرة ، حيث أمر
القاضى أن أوضع فى حجرة وجدت بها رجلين بدت
عليهما علائم المرض ، فكانا أول من شاهدت فيهما
هزال العلة بين أولئك القوم ..

وان هى الا فترة قصيرة استدعى بعدها المريضان
واستدعيت فى أثرهما ، وكان ذلك لفحص طبي دقيق
قام به طبيبان . ثم أمر القاضى أن تفرغ جيوبى مما بها ،
ولم يكد الباحث يخرج ساعتى حتى أخذ الحضور
شعور الامتعاض والاستياء لسبب لم أدركه اذ ذاك .

نعم أدهشنى فزع القاضى من هذه الآلة العجيبة
بحملها رجل متمدين ، فظننته بادىء الأمر فزعا لجهله

بأمرها ولكنى سرعان ما تبينت انه كاره ماقت لا يرى
مبررا أن يستعين الانسان بآلة كائنة ما كانت ، وأمرنى
الرئيس على الفور أن أتبعه الى حجرة شهدت بها عجبا
عاجبا ، شهدت بها صناديق ألقيت فيها أجزاء من
آلات محطمة ، وأشار الرئيس الى صندوق امتلأ
بساعات بالية وأمرنى أن أقذف بساعتى بين تلك الأشلاء .
ولم ألبث قليلا حتى جاء من ساقنى فألقى بى فى
حجرة من بناء قريب ، عرفت فيما بعد انه السجن .

أحسست بالحزن والقلق والوحشة . وشاقنى ما
شهدت الى تعرف عادات القوم ، فما معنى تلك الغرفة
التي امتلأت بآلات محطمة ، وماذا يفضى الرئيس ان
يجدنى أحمل ساعة تنفعنى ولا تضره ؟ ولكنى فكرت
قليلا فتذكرت انى لم أصادف عند القوم آلة يستخدمونها
فى حياتهم . ان القوم لم يكونوا من السذاجة بهذا
القدر ، بل انهم يحيطون علما بكل ما بلفته المدنية
الحديثة من مخترعات . فكيف أعلل علمهم بأسباب
المدنية كلها مع احجامهم بل اضطهادهم لثمرات المدنية
وزاد فى حيرتى أن علمت انهم كانوا قد اصطنعوا فى
حياتهم منذ قرون كل ما تصطنعه اليوم فى أوروبا من
اختراع ، وانهم عادوا فنبذوا كل ذلك . نبذ النواة !

كنت أفكر فى ذلك حين جاء الى غرفتى رجل قيل
انه معلم أرسله أولو الأمر ليعلمنى لغة البلاد ، فاشتغلت
لذلك . . أولا : لأعلم لغة البلاد فتقل وحشتى . .
وثانيا : لأنى أستخلصت من ذلك ان الدولة لا تضر
لى السوء .

وما كدت أطلق لسانى فى لغتهم بعض الشيء حتى

أخذت أستفسر من السجنان وابنته — وكثيرا ما كانت
تفد الى غرفتي — عما صادفت من مشكلات لم أفهماها
فعلمت ان ساعتى هى سبب نكبتى ، وان من يحمل
آلة عند أولئك القوم لا يقل خطرا عن من يحمل حمى
التيفوس .

ومن أعجب ما أثار دهشتى اننى شعرت يوما بمرض
خفيف ، فلما أقبلت ابنة السجنان تحمل الى طعام
الافطار أنباتها بعلى ، وكنت أطمع منها في عطف
ومواساة ، ولكنى لشد ما دهشت حين رأيت الفتاة
ثائرة غاضبة .

ثم قالت : لولا انى أشفق عليك الانبات أبى بهذا الجرم
الشنيع .

فسألتها : أى جرم أتيت ، فان كنت قد أخطأت فعن
جهل لا عن عمد . فنظرت الى نظرة المبهوت ، وأجابت :
ان المرض فى أرض اردن جريمة لا تفتقر ، واعتداء
على القانون لا تجد الرحمة اليه سبيلا ، فلو بلغت شأنك
الى ذوى السلطان لقدموك على الفور الى محكمة تقاضيك
وتلقى بك فى سجن كريحه أمدًا يطول أو يقصر باختلاف
المرض الذى أصبت به ...

فوقع حديثها ذاك من نفسى موقع الدهشة والعجب

ولقد فسرت لى هذه الحادثة كثيرا مما لم أفهمه .
فالمريضان اللذان رأيتهما أمام القاضى كانا يقفان موقف
المتهم بجريمة المرض ، وقد حكم عليهما القاضى بالسجن
والشغل الشاق .

مضى شهر — وكنت قد اتقنت كثيرا من لغة الحديث

فجاء السجنان والمعلم يشبأني أن أولى الأمر قد
أجازوا أن يطلق سراحى ، ما دمت قد أنفقت هذه الأيام
صحيح البدن . على أن أقصد من فورى الى العاصمة
ليرانى ملك البلاد وملكتها ، ولأن تاجرا فى العاصمة
سمع بأمرى فأرسل يدعونى فى ضيافته .

وقد جرى بينى وبين معلمى حديث أنبأته فيه بأنى
رجل فقير .

فأجابنى بأن الفقر فى بلادهم جريمة كبرى ، وأنه
يعلم اننى فقير وان محكمة تألفت بالفعل لتنظر فى أمر
عقوبتى من أجل فقرى لولا أن الملكة توسلت الى الملك
فى العفو عني لأنها كانت تحب أن ترانى حين علمت ان
لى بشرة شقراء وعينين زرقاوين .

استيقظت فى صباح اليوم التالى وغادرت غرفة
السجن لأركب عربة كانت تنتظرنى فى الطريق لتحملنى
الى عاصمة البلاد ، ولن أقض على القارىء تفصيل هذه
الرحلة الشاقة ، غير انى أعيد القول فى النظافة والجمال
اللذين شهدتهما أينما حلت ، فلم تقع عيناي الا على
أجسام صحيحة جميلة رشيقة ..

وقد أتيح لى اثناء الطريق أن أتحدث الى بعض
المخرجين فى جامعاتهم ، فسألتهم عن طائفة مما شهدته
وبخاصة عما قصدوا اليه من اقامة التماثيل المخيفة
فى الطريق المؤدية الى بلادهم ، فأنبأونى بأنها أقيمت
هنالك فى عصر سحيق فى القدم ، وان تقاليدهم كانت
تفرض أن يؤخذ أقبح من يروونه خلقة وأضعف المرضى
بنية ، فيذبحونهما ضحية لتلك التماثيل ، وذلك لحفز
أهل ارون على نشدان الصحة والجمال ، ولكنهم الآن

يحمدون الله أن بلغوا جدا بعيدا جدا من الصحة الموفورة
والجمال الرائع فلم يعودوا يذبحون ما كانوا يذبحون
من ضحايا .

وسألتهم عن متحف الآلات القديمة ، وعن علة تدهور
الفنون والعلوم والمخترعات في بلادهم .

فأجابوني بأنهم منذ أربعة قرون كانوا قد بلغوا ما
بلغته أوربا اليوم من التقدم الآلى ، بل كانوا قد جاوزوا
ما بلغته أوربا في كثير من الصناعات ، ولكن حدث
أن أستاذا عظيما أخرج كتابا بارعا يلفت النظر (وسياتى
ذكره فيما بعد) وقد أقام فيه الدليل القاطع على
استخدام الآلات لأبد منته الى تدمير الإنسانية وتحطيمها .
وقد بلغ الاستاذ من قوة الحججة في هذا الكتاب أن
تبعته الأمة بأسرها ، وأخذوا يمحون من أرضهم ما بها
من آلات ، وحرمت قوانينهم أن يدخل انسان أى
أصلاح على آلة من الآلات ، وبدءوا ينظرون الى من يحمل
آلة معه كمن يحمل وباء معديا ينبغى أن يقاوم وينبذ .

أدركنا العاصمة فألفيتها مدينة جميلة تزدان
بالاشجار والازهار ، واسترعى نظرى مرة أخرى ما
شاهدته في أهلها من جمال جذاب وخلق حلو كريم .
وقد استقبلنى فيمن استقبلونى ذلك التاجر الذى
دعانى لضيفاوته ، وأخذنى الى داره حيث زوجته
وابنتاه ، ولم تمض ساعة حتى أقبل علينا رجل نحيل
ذولحية سوداء ، فاصطحب رب الدار الى غرفة مجاورة
لنا ، ولم ألبث حتى سمعت مضيفى يشن ويبكى ،
فأخذتنى الدهشة والعجب ، ولكن الزوجة والفتاتين
شرحن لى الأمر ، فقلن أن ذلك الزائر القادم هو طبيب

الأخلاق الذي يقوم من أعوج خلقه ، وأخذن يبسطن
لى بعض عاداتهم السائدة مما سأتناوله بالشرح فيما
بعد ..

فهم يرون انه اذا أصابت أحدهم علة فى جسده
قبل أن يبلغ السبعين ، فجزاؤه المحاكمة وزدراء
الناس ، وان توقع عليه عقوبة تقسو أو تهون حسب
اشتداد المرض أو خفته . أما ان ارتكب أحدهم التزوير
أو أحرق منزلا ، أو سرق شيئا ، أو ما يشبه هذا ،
فليس ذلك عندهم اجراما ، ولكنه نقص خلقى يحتاج
الى علاج فى مستشفيات الدولة ، أو فى داره ان كان
يستطيع الانفاق .

وهناك طبقة من الأطباء يسمون « بالمقومين » وظيفتهم
اصلاح الخلق السقيم . وقد اتقن هؤلاء « المقومون »
دراسة الحالات النفسية التى تؤدى الى سوء السلوك .

وكما نعترف نحن الى أطبائنا بكل أمراضنا الجسدية
ليتولوا علاجها ، فكذلك هم يعترفون الى مقوميهـم
بكل ما فعلوا مما يشين الخلق . فهم ونحن على طرفي
نقيض : نحن نعترف بالامراض الجسدية ونكتم الامراض
الخلقية ونخفيها عن الناس ، أما هم فيكتمون الامراض
الجسدية ما استطاعوا ولا بأس عندهم من اعلان الامراض
الخلقية فى الملأ .

فالواحد منا يقول لأصدقائه :

لقد أصابنى الليلة برد خفيف ، أما وأحدهم ، فيقول
لاخوانه :

لقد سرقت اليوم جوربا وأريد عرض الامر على مقوم !

ولعل أعجب ما يستوقف النظر في محاكمهم ، أنهم يحاسبون المرء على سوء حظه (١) حسابا يختلف يسرا وعسرا باختلاف درجة سوء الحظ الذى أصاب المتهم .

ذهبت يوما لأرى احدى المحاكم فألفت القاضى يحاكم رجلا لأن زوجته ماتت وخلفت له اطفالا ثلاثة ، سن أكبرهم ثلاث سنوات ، ولقد أدهشنى أن توجه المحكمة قارص اللوم الى من تولوا الدفاع عن المتهم فى جريمة ظاهرة كهذه !.. ومما قاله القاضى تبريرا لحكمه الذى قضى به ، نريد أن تكون احدى قواعد الأخلاق فى أروان أن يحترم الانسان بمقدار ما يواتيه حظه (٢) ، على أن الدولة لا تبيع لفرد أن يبلغ من سوء الحظ حدا مسرفا غير معقول ..

ثم التفت القاضى الى المتهم وقال :

ان موت زوجك حظ بالغ السوء ، والطبيعة من شأنها أن تقرن مثل هذا الحظ الانكد بأشد الجزاء ، ويجب أن يسن القانون البشرى على نسق القوانين الطبيعية ، ولذا فأنت فى رأى تستحق السجن والشفل الشاق ستة شهور ، ولكنى سأخفف العقوبة الى ثلاثة أشهر فقط ، لأنى علمت انك قد تحوطت لسوء الحظ وأمنت على حياة زوجك بمبلغ لا بأس به .

ولعل أعجب قضية رأيها عند هذا الشعب العجيب

(١) - أحب أن ألفت نظر القارئ الى التهمك هنا - وان يكن ظاهرا - فسيدهش القارئ من قوم يحاسبون الناس على سوء حظهم ، ولكنه ان فكر قليلا يجد أن ذلك ما تعلمه نحن ، إذ المرء عندنا مسئول عن سوء طالع !

(٢) ما أبر هذا التهمك من الكاتب على الحالة السائدة بيننا وهى أن صاحب الحظ السعيد هو وحده الجدير باحترام الناس !

قضية رجل حوكم لاصابته بالسسل الرثوى ، فدافع المريض عن نفسه بأنه ورث هذا المرض عن أبيه ، وبأنه أصيب بحادثة مروعة في طفولته أضعفت بنيته ، ولكن القاضي أجاب في حدة بأنه لن يلقي بالإ إلى مثل هذه الأعذار السخيفة الباطلة التي ترد التبعة على الأسلاف (١) لأنه ان قبل ذلك لأمكن أن ترد الجرائم كلها الى الخلية الاولى ، بل الى السديم الاول الذي نشأ منه الكون .

وقال القاضي انه يأسف أن يرى شأبا في الثالثة والعشرين يتقدم اليه متهما بمثل هذه الجريمة الشنعاء وانه لولا أن أرض ازون قد ألقت عقوبة الإعدام لقضى عليه بها ، إذ لو سمحت الدولة ببقاء الأمراض في أهلها لظهرت على الفور طائفة الأطباء وطائفة تجار العقاقير ، وهما طائفتان تجران البلاد الى خطر مستطير .

أما ان دافع المريض عن نفسه بأنه ولد مريضا ، أو نشأ في طفولته هكذا وهو لذلك غير مسئول ، لأجابه القاضي بأنه سواء كان المرض من خطأ المريض أو من خطأ سواءه ، فهو على كل حال خطأ استقر فيه وواجب الدولة أن تمحوه ..

وقضى القاضي أن يسجن الرجل وأن يكلف بالعمل الشاق مدى حياته ..

هكذا كان حكم القضاء في المرضى والضعفاء ، ويعتقد أهل ازون ان تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع انتشار الضعف والمرض فان ظن ظان ان هذه قسوة جائرة فقد فاته ان عشرة أمثال هذه القسوة كانت ستنزل بالناس

(١) لاحظ أن الكاتب يتهم هنا عن غفلة الناس على هذه الأرض ، حدث بهم أن تحاكم المجرمين وتحملهم مسئولية اجرامهم مع انهم في أغلب الحالات قد ورثوا أخلاقهم عن آبائهم .

بسبب العدوى ان لم يمح أمثال هؤلاء ..

ان أهل أرون لا يرون غرابة في أن يحاكم الناس من أجل حظه المنكود وأن يجازوا خيرا لطالعهم السعيد. ويبررون ذلك بأن تلك هي حالة الانسان الطبيعية ومن الحمق أن تعترض بقولك ان الانسان ليس مسئولا عن سوء حظه ، اذ ما هي المسئولية ان لم تكن عبارة عن استعداد للفرد للجواب على أسئلة يوجهها المجتمع اليه عن حياته وعمله ، تلك هي سنن الطبيعة ولن تجد لها تبديلا ..

فما ذنب الحمل ترعاه وتكلأه لتذبحه وتأكله ؟ ذنبه سوء حظه الذي جعله شيئا يأكله الانسان ..

ولماذا يكافأ ابن الفنى صاحب الملايين ؟ لأن من صالحنا أن نحفظ بما يملكه فراينا الوسيلة الى ذلك أن نحفظ للناس بما يملكونه ، ولولا ذلك لما أبقينا لصاحب الملايين على ملايينه ساعة واحدة ..

الحقيقة التى لا ريب فيها ان الملكية سرقة وكل الناس لصوص ، وقد أرادوا أن ينظموا السرقة فيما بينهم .. الملكية والزواج وسائر القوانين وهى بمثابة الشكيمة التى تضبط الفرائز كما يضبط السد ماء النهر ، فويل لمن يشلم سدود النهر حين يكون النهر فياضا بمائه .

وأى غرابة في أن يحاكم أهل أرون المريض وسيء الحظ ؟ اننا لا نتردد في نبذ المريض بالحمى الصفراء ، ولا نسمح له بالدخول فى أرضنا ، ونحصر المجنون فى بيمارستان ولا نأذن له بالخروج ..

اننا نقتل الثعبان لا لشيء ، الا لأنه ثعبان يعرض

حياتنا للخطر ، وكل جريمته انه لم يكن حيوانا مأمون
العواقب . نحن نقتله ولا نرى في قتله اجرا ما وان كنا
قد نعطف عليه ..

ولقد يفترض معترض بأن القانون ظالم ان هو حاسب
المرضى بمرضهم ، لأن المرض نتيجة لأسباب فوق
مستطاعهم أن يسيطروا عليها ؟ هذا صحيح .. ولكن
المرضى بالسل مثلا كالفاكهة المعطوبة ، ليست مسئولة
عن عطبها ، ومع ذلك فلا نتردد في قذفها ليسلم الباقي

ان أهل أرون لا يرون غرابة في أن يحاكم الناس من
نظرتهم الى المرض ، فهم لا يكثرثون بالآجال المحتومة مع
علمهم بأن الحياة قصيرة الأمد .

فان أسلم أحدهم الروح أحرقوا جسده وذروه مع
الرياح ، وهم لا يجيزون أن تقام التماثيل للعظماء ، اذ
رأوا ان التماثيل التي تكدست على مر العصور قد
ازدحمت في الطرق والميادين ازدحاما يعطل سهولة
السير .

ومن تقاليدهم ألا عزاء في ميت ، وألا يلبس أحد
شعار الحداد .

وأما ديانتهم فهي عبادة لاوثان ، ولكنها وثنية تقوم
على مدى من العقل السليم ، فتراهم يشخصون في
تماثيلهم بعض الصفات كالعدالة ، والقوة ، والامل ،
والخوف ولآلهتهم تلك شغف بشئون البشر، وهم يغضبون
اذا أهمل الناس عبادتهم ، والعجيب في أمرهم أنهم
يعاقبون من أجل ذلك الاهمال أول من يصادفونه ، ولا
يأبهون كثيرا أن يقع العقاب على من وقع منه الاهمال .
وهم يعاقبون الناس اذا أخطأوا في حقهم عن جهل وغير

عمد ، شأنهم في ذلك شأن القانون الانجليزى يفرض
انه محفوظ معلوم عند الجميع .

وانى لأذكر ذات مرة كنت أتحدث الى فتاة ، فكانت
تشرح لى ديانتهم تلك ، فلما عرضت عليها عقائدنا ،
ضحكت وقالت :

واى خلاف بيننا وبينكم ، ان الهكم هو تعبير لراى
الانسان عن الصفات المحموده ، فهو عندكم حكمة وقوة ،
وقد شخصتم هذه الصفات فيمن سميتوه بالله ..

وأحسب ذلك انتقاصا من الالهية السامية ، ولعلنا
نكون أقرب الى الحق ان عبدنا الله فى كل ما نصادفه
فى الوجود ، فنعبده فى آيات الفن ، وفى مظاهر الطبيعة ،
نعبده فى الصورة الجميلة ، وفى التمثال الرائع ، وفى
الحقل ، والسحاب ، والبحر ، نعبده فى الانسان ، فى
الطفل والمرأة والرجل ..

وينكر اهل ارون خلود الروح ، ورأيهم فى ذلك ان
العقيدة فى خلود الروح تفرى الناس باهمال هذه
الحياة الدنيا وقد تدعوهم الى الاستسلام للفقر والمرض

ومن أعجب عقائدهم ان روح الانسان كانت موجودة
قبل ميلادها فى عالم روحانى ، فلما أرادت أن تهبط
الى هذه الدنيا انطلقت توسوس الى زوجين أن يتلاقيا
لينسلاها فى جسد ، مع ان الزوجين لو تركا لرأيهما
لما أضافا الى العالم انسانا جديدا ..

من أجل هذا ترى حكومة ارون حريصة على أن تخلى
الآباء ، من تبعة الأبناء ، فشهادة الميلاد عبارة عن اقرار
بأن الوليد كان فى عالم الروح ، وانه هو الذى دبر مؤامرة

مجيئه الى هذا العالم ، فأبساء بذلك الى والديه
وحرهما لذة الحياة وسعادتها ..

والوليد هو المسئول عن نقصه الجسماني الذي
ستحاسبه عليه الدولة ، والعرف عندهم أن يتلى هذا
القرار في اليوم الثالث بعد الميلاد على مسمع من الوليد،
فإن صاح كان ذلك اقرارا منه بالقبول ، ولم يعد من
حقه أن يعارض القانون ان أراد محاكمته على مرض أو
تشويه .

وفيم اعتراضهم ؟ انهم يقولون ان الارواح قبل
ولادتها كانت تعيش في مدن وتاكل وتشرب كما يفعل
البشر ، وقد كانت تنعم بالسعادة الكبرى لأن حظوظهم
جميعا تتراوح بين حدين معقولين ، فلا تسرف في الزيادة
ولا تفرط في النقصان ، ومع ذلك فقد يرغب بعض تلك
الارواح في أن يلبس أجسادا كأجسادنا فيأخذ في السعي
الى المجيء الى هذه الدنيا مع أن هذه الدنيا لا تعجب
الا الحمقى والمغفلين . فاذا أراد روح أن يهبط الى الارض
ذهب الى قاض يتلو عليه شروط الحياة في الارض قبل
أن يقدم على فعلته فيقول :

ان أهل الارض لا حق لهم في اختيار الاجساد التي
يضعون فيها ارواحهم ، بل ان هذا خاضع للمصادفة
العمياء وحدها ، وان الأبوين اللذين سينسلانه لا علم
لأحد بهما فقد يكونان غنيين أو فقيرين : مريضين أو
صحيحين ، رحيمين أو قاسيين . وعلى الروح اذا ما
ولد أن يضع نفسه تحت رحمة أبويه عدة سنوات ،
مع انه لا يدري عن بيئتهما أو عن نصيبهما من سلامة
التفكير شيئا .

فكر أيها الروح في احتمال أن يلدك أبوان شقيان

فيريئك على الشر والرديلة، أو أبوان أحمقان فينشئانك على الكذب والباطل ، أو أبوان يظنانك ملكا لهما لا ملك لنفسك ، أو أبوان لا يفهمانك فيحسبانك عاقا لا تكن لهما الحب ، أو أبوان ينظران إليك نظرتهمما إلى الوحش الصغير يجب أن تخضع شوكتة وهو في حجر الطفولة خشية أن يشب وله مشاعر خاصة به فيقضى بها مضجعهما .. تذكر أيها الروح أن تكوينك سيخضع للصدفة المحضة ولن يكون لك رأى في تنشئ نفسك (١)

أليست هذه العقيدة عند أهل أرون تصويرا دقيقا للحياة ؟ أن العلاقة بين الآباء والأبناء على أسوأ ما تكون العلاقات . لماذا لا يعامل الآباء أبناءهم كما كانوا يحبون أن يعاملهم آباؤهم ؟ هذه بديهية سهلة ولكنها عسيرة التنفيذ .. ولعل العظماء وحدهم هم القيادرون على تنفيذ البديهيات ! اليس معظمنا يسعد مع غير آباءه أكثر مما يسعد بينهم .. الصورة المثلى للحياة أن تسود المحبة الصحيحة التي لا رياء فيها بين الآباء والأبناء أما أن أسرف الوالد في أنانية فليتوقع كره أبنائه .. وواهم من يظن أن كلمة « والد » في نفسها طلسم يولد في قلب الابن أعاجيب الحب !

وأحسب المال سببا لكثير من الشقاء بين الوالدين والأبناء . فلو ترك الأبناء ليكسبوا قوتهم في سن باكرة لشعروا باستقلالهم وصلح أمرهم ، ولكن المجتمع يبطل في تعليمهم ، فيكبر الأبناء وتكون لهم حاجات ورغبات لا يجدون مالا لتحقيقها .. وفيه هذا التلكؤ في تربية الأبناء ؟ الآن آباءهم يبعثون بهم إلى مدارس أخذت على عواتقها أن تعلم الطالب كيف يصبح عديم الفائدة !

(١) أنظر كم بلغ التشاؤم واليأس من الكاتب في إصلاح العالم .

لماذا لا تكتفى الدولة بتعليم القراءة والكتابة والحساب،
ثم تترك الأبناء بعد ذلك يسعون وراء كسب عيشهم ؟
ان الآباء اذا رأوا أبناءهم يعاونون بكسبهم على سعادة
الأسرة وجدتهم يكثررون النسل بدل واده .

لقد تنبه اهل ارون الى ذلك ففرضوا ضريبة على
من يترك أبناءه الى سن العشرين دون أن يزج بهم في
عمل يكسبون منه العيش . وهم بهذه الخطة الرشيدة
يفيدون المجتمع بانتاج هؤلاء الأبناء ، ويخففون الضغط
عن الآباء ، وبذلك يبدرون بذور الحب بين الوالد والولد

ان اهل ارون يحبون الانتاج الكثير ويشجعون عليه،
وهم يعفون كثير الكسب من دفع الضرائب .. المال
عندهم رمز يدل على ان صاحبه أدى واجبه وتخدم
المجتمع .

لقد كنت قبل دخولى أرض ارون أومن ان أصحاب
المال مارقون على المجتمع وانهم ليسوا من أصحاب
الجنة ، ولكنى بعد زيارتى لأرون أيقنت ان المعدمين
أبعد الناس عن نعيم الفردوس ان الناس فى أرضنا
يقابلون المال بالثقافة فيقولون ان من ينفق أيامه فى جمع
المال لن يتاح له أن يحصل قدرا موفورا من الثقافة ..
الا ان هذه الأكذوبة الأكاذيب ! أى ثقافة أعظم من ان
يعتمد المرء على نفسه فى كسب قوته ؟ وماذا تفيد
الثقافة الفقير المفلس سوى أن تزيده شقاء الى شقاء ؟

وقد كثر اللجاج بين اهل ارون على موضوع الكهولة
والشباب ، أيهما أحق بالسلطان؟ فيقول أنصار الشباب
ان وضع الامر فى أيدي الكهول يستحث الشبان الى
الاسراع فى خلع ثوب الشباب مع أنه أخلق بالناس أن
يحملوا الكهول على اصطناع الشباب ويسود الآن

عندهم رأى أن يحكم كل من الفريقين أسبوعا ، والسن
الفاصلة هى الخامسة والثلاثون ، وبذلك يتاح للشبان
أن يؤيدوا الكهول !

أما الجامعات فى أرون فأول ما يستوقف النظر فى
نظامها انها تعنى بالجانب النظرى دون سواه ، فهم
يؤثرون أن يعلموا الطلاب أمورا فرضية بحثة على أن
يشرحوا لهم طبائع الاشياء المحسوسة التى يرونها حولهم
فى الحياة (١) ، وتراهم يلقنونهم لغة لم تعد تنطق بها
السنة الاحياء بل كل شأنها انها كانت لغة زمن ذهب
وانقضى . هم يملأون أنفس عهود الحياة بمثل هذه
الدراسة النظرية ، فيهدرون بذلك مجهودا بشريا كان
يمكن أن ينصب على مشكلات الحياة الحاضرة ، وليت
هذه الدراسة على عقمها تصادف هوى فى نفوس الطلاب
بل انهم يساقون اليها سوقا .

ومن المظاهر العجيبة التى يلحظها الزائر عند أولئك
القوم انهم يمقتون أصالة الفكر ، فهم يتوقعون من كل
فرد أن يجرى فى تفكيره على نسق سواه ، ويعدونه
جنونا أن تشذ فى رأى أو عمل . . فان عارضتهم بقولك
ان التنافس بين الناس فى التفكير يؤدى الى التقدم
والرقى أجابوك أنهم يتمنون أن يظلوا حيث هم . فمن
تعن له فكرة ينبغى ألا يذيعها فى الناس الا ان وثق انها
ستلقى منهم قبولا ورضا . . ومن الشر المرذول أن
يسبق انسان عصره الذى يعيش فيه أو يتلكأ من دونه ،
فان كان فى مقدورك أن تجذب عصرك معك فيها ، والا
فاكتم رأيك فى صدرك (٢) . . ان الصحف اليومية

(١) هذه سخريه من نظم التعليم عندنا .

(٢) التهكم هنا ظاهرة وغرض الكاتب واضح .

والمدارس على اختلافها تشل النبوغ وتشجع التوسط .
انهم على نقيض الاثنيين الذين كانوا يرحبون بكل رأى
جديد ، اذ تراههم وكأنما حسبوا عقولهم كالمحاريب
المقدسة اذا استقرت فيها فكرة فحرام أن تعارضها
فكرة أخرى ! !

لقد أشرنا فيما سبق الى ان أستاذنا عالما أخرج كتابا
عن الآلات وخطرها الباهم على الانسانية ، وكان قوى
الحجة في كتابه بحيث حمل الاهلين معه في الرأى
فحطموا آلاتهم وحرموا استخدامها . ولما كان هذا
الكتاب عميق الأثر في حياة ارون ، كان لابد لنا من
تلخيص ما فيه :

مرت أزمان كانت الارض فيها خلوا من كل حيوان
ونبات ، ولم تكن سوى كرة ملتهبة أخذت قشرتها في
البرودة شيئا فشيئا . فلو شهدها انسان حينئذ لما
صدق ان كائنات لها عقول ستتطور يوما من ذلك اللهب
المتأجج بها . . ولكن ذلك ما حدث في مجرى الزمن .
أفيستحيل أذن أن يتطور العقل الى شيء جديد لاندريه
ولا نتصوره ؟ . . اذا أمكن أن يتطور عقل الحيوان من
النبات ، فماذا يمنع أن يتفرع كائن عجيب من عقل
الانسان ؟ انه لحقق وغباء أن نرى كل هذه المراحل
التي تطورت في مدارجها الحياة ، ثم نزع ان المرحلة
الحيوانية هي غاية الشوط ! . .

ولو أمعنت في النظر الى الاشياء التى حولك لرأيت
بينها شيئا يشير من طرف خفى الى أنه هو الجنس
الذى ستكتب له السيطرة . . وذلك هو الآلة ! انظروكم
تقدمت الآلة في أعوام قلائل تقدما سريعا على نحو لم
تعهد مملكتا النبات والحيوان . ان الآلة تتطور كل

دقيقة فماذا عساها أن تكون بعد ملايين السنين ؟ أليس خيرا لنا أن نقمع الشر في أوله ؟

ومن ذا الذى يزعم أن آلة البخار مثلا لا ادراك لها ؟ فليحدثنى الزاعم أين يبدأ الادراك وأين ينتهى ؟ .. من ذا الذى يستطيع أن يرسم الخط الفاصل بين الادراك واللاادراك ؟ .. ما الفرق بين فنجان نمسك فيه البيضة وبين القشرة التى تصنعها الدجاجة لتمسك بها بيضتها؟ هذه آلة صنعت فى الداخل وتلك آلة صنعت فى الخارج ولا فرق بين الآلتين ..

إن كل شىء فى عالم الاحياء يبدو على شىء من الادراك . فهناك ضرب من النبات يأكل بعض الحشرات ، فاذا ما وقعت حشرة منها على وريقاته أطبقها عليها وامتصها ومثلها ، أما أن سقطت عليها قطرة ماء أو ذرة من حصباء فإنه لا يأبه لها .. فاذا لم يكن هذا ادراكا فأين يكون الادراك ؟ .. فان قلت أن النبات لا عقل له وأنه ينمو مجبرا ما دامت البيئة الملائمة لنموه قد توفرت حوله من تربة وهواء ومناخ ، شأنه شأن السفينة لا يسعها إلا أن تسير ما دام الهواء يدفع الشراع .. ولكن أليس الطفل كذلك مجبرا على النمو ما دام الطعام واللباس الملائمان قد توفرا له ؟ .. أليس كل شىء فى هذه الدنيا كالساعة ، يسير اذا أعدت له العدة الصحيحة ، ولا يسعه إلا أن يسير ؟

ضع نبات البطاطس فى غرفة مظلمة واثلم جدارها ثلثة بنفد منها الضوء ، تر النبات قد زحف بفروعه على الأرض ثم صعد على الجدار حتى يبلغ نافذة الضوء فيرسب فروعها خلالها . وإن صادفت الفروع أثناء زحفها شيئا ملائما لغذائها أكلته ومثله .. فأين الادراك

ان لم يكن هذا ادراكا سليما صحيحا يعلم ماذا يريد ويسعى الى الحصول عليه ؟ لعل ما حدا بالانسان ان يجرد النبات من الادراك والعاطفة انه رأى البطاطسة مثلا لا تصيح ولا تئن اذا قطعها أو غلاها في الماء ؟ وان قيل ان البطاطسة تمد جذورها وتلقم طعامها على نحو آلى لا ادراك فيه ، فما أدرانا الا تكون عواطف الانسان وأفكاره وسائر ظواهره الانسانية نتيجة لحركة ذرية آلية ، أو نتيجة لافراز هذه الفدة أو تلك ؟

أما ان نعترف بأن للأشياء ادراكا ، وبذلك نعترف ضمنا ان للآلات ادراكا لا نفهمه . واما أن نقول ان الانسان وحده يتمتع بالادراك ولكنه هبط من أصول لا ادراك لها ، فتكون النتيجة المنطقية ان تتطور الآلات - التي قد يكون لها ادراك اليوم - الى شيء جديد له فوق ما للانسان من ادراك وفكر . . وأذن فيابنى آدم - سارعوا بتحطيم الآلات خشية أن تسبقكم بعد قليل في مضمار الحياة !

انظر الى عين الانسان . أليست آلة . يستخدمها المخلوق الصغير الكامن وراءها ؟ . عين الميت هي كعين الحي سواء بسواء ، فليست هي التي تعجز عن النظر ولكنه ذلك الكائن الكامن وراءها هو الذى أصابه العجز . . . فأى فرق بين هذه الآلة المركبة في أجسادنا وبين المنظار المقرب أو المكبر نشهد به الشمس والاقمار وصفار الديدان ؟ . . أليس لدينا من الآلات ما يحسب الأرقام أدق مما نفعل بعقولنا ؟ . . فحيثما أحتاج الانسان في عمله الى الدقة طار الى الآلة ، لأنها تفضله في الدقة ولا تعرف الخطأ والزلل ؟ . . والآلة فوق ذلك لا يصيبها النصب والنعاس ، فهي أبدا تقتدر

على العمل ، وهى أبدا موفورة النشاط صبرها غير نافذ . . الآلة أقوى من أشداء الرجال ، والآلة أسرع فى طيرانها من الطير ، والآلة تسير على سطح الارض وتغوص تحت أغوار الماء ! ! .

بل فكر فى أمر الانسان قليلا ، انه ملئء بالوف بالوف من الطفيليات حتى ان جسد الانسان يكاد يكون مجموعة من تلك الطفيليات . فهى اذن التى تعينه على السمع والنظر وسائر الملكات . . فلماذا لا تعد الانسان حيوانا طفيليا يعين الآلة على السمع والنظر وما اليهما ؟

ان الآلة البخارية تستهلك الطعام كما يستهلكه الانسان ولها نبض ودورة كما للانسان . قد يقال : ولكن الانسان أدق تركيبا ونحن نجيب ؛ اعط الآلة نصف الزمن الذى أتيح للانسان ، وانظر كم تبلغ من دقة التركيب .

انى لأرى الانسان يعمل بنفسه على خلق خلفه فى سيادة الارض ! انه مايفتا يزيد من دقة الآلة ونظامها وقوتها ، ولست أشك فى أن الامر سينتهى بالآلة الى ذكاء خارق وعندئذ تعلو فى سلم الكائنات وتسود .

كانت الآلات فيما مضى تأكل بواسطة الانسان أو الحيوان ، اذ لم تكن لها معدات لهضم الطعام . فكان المحراث والفأس والعربة - مثلا - تستغل معدة الانسان أو الحصان فى هضم ما تريد لنفسها من قوت . فلا بد أن يأكل الانسان لحما وخبزا ولا بد أن يأكل الحصان علفا ونجيلا ، ليتحول القوت فى ذلك أو فى هذا الى قوة ، ثم لتنصب القوة على المحراث أو الفأس أو العربة فتحركها ، أو ليس معنى هذا أن اللحم والخبز والعلف ان هى الا طعام تقتات به الآلة فى معدات غيرها ؟

ثم انتقلت الآلة في ذلك خطوة في سبيل التقسيم فأصبحت صنوف منها قادرة على أكل طعامها بنفسها ، فكانت هذه خطوة فسيحة دنت بها - ان لم أقل من الحياة - فمن حالة تشبه الحياة وان اختلفت عنها في الظواهر ، كما يختلف النبات عن الحيوان . فان يكن الانسان ممتازا - اذا قيس الى الآلة - في بعض نواحيه ، فلا يمنع هذا أن تكون الآلة سائرة في سبيلها نحو السيادة عليه ، وتلك سنة الطبيعة في تطور الأشياء ، أفلا ترى بعض الحيوان يفوق الانسان في بعض جوانب الحياة مع انه سابقها في سلم التطور ؟ فيمتاز النحل والنمل عنه في التنظيم الاجتماعي ويمتاز الطير بطيرانه والسمك بسباحته ، والجواد بقوته وسرعته والكلب بتضحيته بنفسه ؟

قال لي بعض من حدثتهم في موضوع الآلات واحتمال رقيها على الانسان : لن تكون الآلة شيئا حيا أو شيئا يفوق الحياة ، لأنها لا تنسل . . فان كان هؤلاء المعترضون يريدون بذلك انها لا تتزاوج ، أعني اننا لن نشهد قاطرتين تتزاوجان وتناسلان فتلدان قاطرة صغيرة تلعب أمام الحظيرة . فانا نوافقهم في الرأي بغير شك . ولكن من زعم هؤلاء القوم ان الآلة ستظل على حالها أبد الآبدين ؟ ألا يختلف الحيوان عن النبات اختلافا شديدا ومع ذلك فكل منهما طريقة خاصة للتزاوج والتناسل ؟ فهل عقلت الطبيعة ولم يعد في جعلتها للنسل سوى هاتين الطريقتين : طريقة النبات وطريقة الحيوان ؟ . . اذا لا نفرض ان الطبيعة لا تزال خصبة الابداع ، وانها ستبتكر للآلات وسيلة ثالثة لم تطرأ على عقل الانسان ؟

هذا على فرض ان الآلة لا تنسل كما ذهب هؤلاء ،
ولكن الآلة تنسل بالفعل آلة أخرى . وان لم يكن
الامر كذلك فقل لى بربك ماذا يصنع الآلة الا آلة غيرها؟
ستقول : ولكنه الانسان هو الذى يعينها على ذلك .
وهذا صحيح .. ولكن أليست الحشرات هى التى
تساعد النبات على التناسل ، ولولاها لفنيت أسر من
النبات بأسرها . أيزعم زاعم أن البرسيم الأحمر لا ينسل
لأن النحلة وحدها هى التى تمكنه من ذلك ؟ لا . ولكننا
نقول ان للبرسيم نسلا وان النحلة جزء من جهازه
التناسلى .. بل لماذا نذهب فى القول بعيدا والانسان
نفسه يستعين على النسل بجرثومة ليس بينها وبينه
شبه ، ومع ذلك لايجرؤ معترض أن يقول ان الانسان
لا نسل له ، بل كل ما يقوله هو ان للانسان نسلا وان
تلك الجرثومة جزء من جهازه التناسلى .. وان كان
هذا هكذا فقل لى بربك ماذا يمنع أن يكون الانسان
جزءا من جهاز الآلات التناسلى ، بمعاونته تستطيع ان
تلد وتنسل الوف الالوف من مختلف الآلات ؟

ولعلى أسمع قائلا يقول : ولكن الآلة ان نسلت فلا
تنسل آلة مثلها . فالأبرة - مثلا - لا تلد الأبرة ، ولكن
والدة الأبرة آلة أخرى لا وجه للشبه بينهما - وهذا
صحيح كذلك ، ولكن أدر وجهك الى الطبيعة وانظر
- السك ترى كثيرا من الاحياء لا ينسل أشباهه ، لا
بل فئة قليلة جدا من الاحياء هى التى تلد أشباهها .
أما بقية الاحياء فتلد شيئا فيه القوة لأن يكون شبيها
بآبائه .. فالفراشة تضع بيضة فتكون البيضة سرفة
فشرقة ففراشة .

لست أشك فى ان الآلة قد اصطنعت لنفسها جهازا

للطعام وستسرع الخطا في أن تبتكر لنفسها جهازا راقيا
دقيقا للتكاثر قبل أن يمضي من الزمن أمد بعيد ! !

ويجوز جدا أن تختار الآلة في تطورها أن يختص
بعضها للنسل دون بعض ، وليس ذلك عجيبا ، فالنحل
والنمل إنما يسلكان هذا السبيل ، ينسل بعضها
ويسعى بعضها الآخر لسائر جوانب العيش .

وقد سمعت رجلا يقول : ان كان للآلة البخارية قدرة
فليس لها ارادة . . . ولكن هل ترى - أيها الصديق
- في العالم كائنا له ارادة حرة سوى الله ؟ . ان الانسان
نتيجة محتومة لمجموعة من القوى والمؤثرات عملت على
تكوينه قبل الولادة وبعدها : فهو خاضع لبيئته وبنيته ،
أعني انه متأثر بالظروف الخارجية كالآلة سواء بسواء .
انك مهما قلبت النظر ألفيت الآلة سائرة في سبيل
السيادة على الانسان بغير شك ، فالخير في قمع الشر
قبل استفحاله . . ولكم نخشى - ان تمسكنا بالآلات
في حياتنا - أن نسوى بين أفراد البشر ، فلا يعود فرق
بين قوى وضعيف . اذ سيصبح في مقدور الضعيف
أن يخفي ضعفه ، فينقل هذا الضعف الى نسله وبهذا
تنحط الانسانية انحطاطا لا ريب فيه . .

لهذه وغيرها من الاسباب ، استغنى أهل ارون عن
الآلات وحطموها تحطيمًا لا رجعة لها بعده

وهذه ظاهرة عجيبة حقا في أهل ارون تستدعى كل
اعجاب ، وتلك انهم لا يترددون في اتباع الرأي الجديد
ان قامت عليه الحجة . . ومن ذلك ان نبيا ظهر بينهم
يبشر بمذهب جديد ، فلم يلبثوا أن اتبعوه حين تبين
صدق ما يذهب اليه ، وان يكونوا قد عدلوا فيما بعد

من شدة الاستمساك بالرأى لما برهنت لهم الايام وطبائع
الانسان ان ذلك الرأى فى حاجة الى التحرير . . . وهاك
صفوة ما بشر به نبيهم :

كان الانسان يقتل أخاه الانسان ويأكله ، ثم تعاقبت
عليه الوف السنين فعلمته أن يستنكر القتل . . واكنى
أدعوه أن يخطو فى ذلك خطوة أخرى ، وهى أن يعف
عن ذبح الحيوان . . . قد يكون الحيوان مخالفا لنا فى
بعض حياته ولكنه شبيهنا بغير شك فى معظم الوجوه ،
فان كان من الخطأ يا قومى أن تقتلوا بنى الانسان ،
فمن الخطأ كذلك أن تذبحوا الحيوان لتأكلوه . . . ان
للحيوان - من طير وسمك وماشية - كل الحق فى أن
يعيش آمنا على حياته من اعتداء الانسان . .

نعم أنا عليم بأن الحيوان لا يزال يقتل بعضه بعضا ،
ولكن هل ينبغى أن نجاريه فى ذلك ؟ اننا لو فعلنا
هبطنا الى مستواه . . اننا لو قتلنا نمرا لأنه فتك
برجل أو امرأة ، كنا كذلك النمر سواء بسواء ، نحن
الذين نزعم لأنفسنا منزلة أعلى من الحيوان فى الفكر
والعمل !

اتبع الناس صوت الداعى أول الأمر ، ثم تبينوا أنهم
أما أن يرتكبوا خطيئة قتل الحيوان ، وأما أن يموتوا ،
فأثروا الأولى على الثانية .

وماذا تراهم صانعين؟ انهم لو استمعوا لصوت العقل
وحده لكانوا من الهالكين . فلا بد لمن يريد لنفسه
اصلاحا من مزج العقل بالفريرة . . . (١) فانه لم يمض

(١) هذا اساس هام جدافى رأى بتلر - وهو يرمز بالفريرة الى
التقاليد - وقصده أن شرط الاصلاح هو اتساق العقل والتقاليد الموروثة .

بعد النبی الذی بشر بعدم ذبح الحيوان أمد طويل ،
حتى ظهر فيلسوف ينشر رأيا جديدا ، وهو أن للنبات
دء وادراكا ، فمن الكمال ألا نعتدى عليه فنأكله !
ل الفيلسوف :

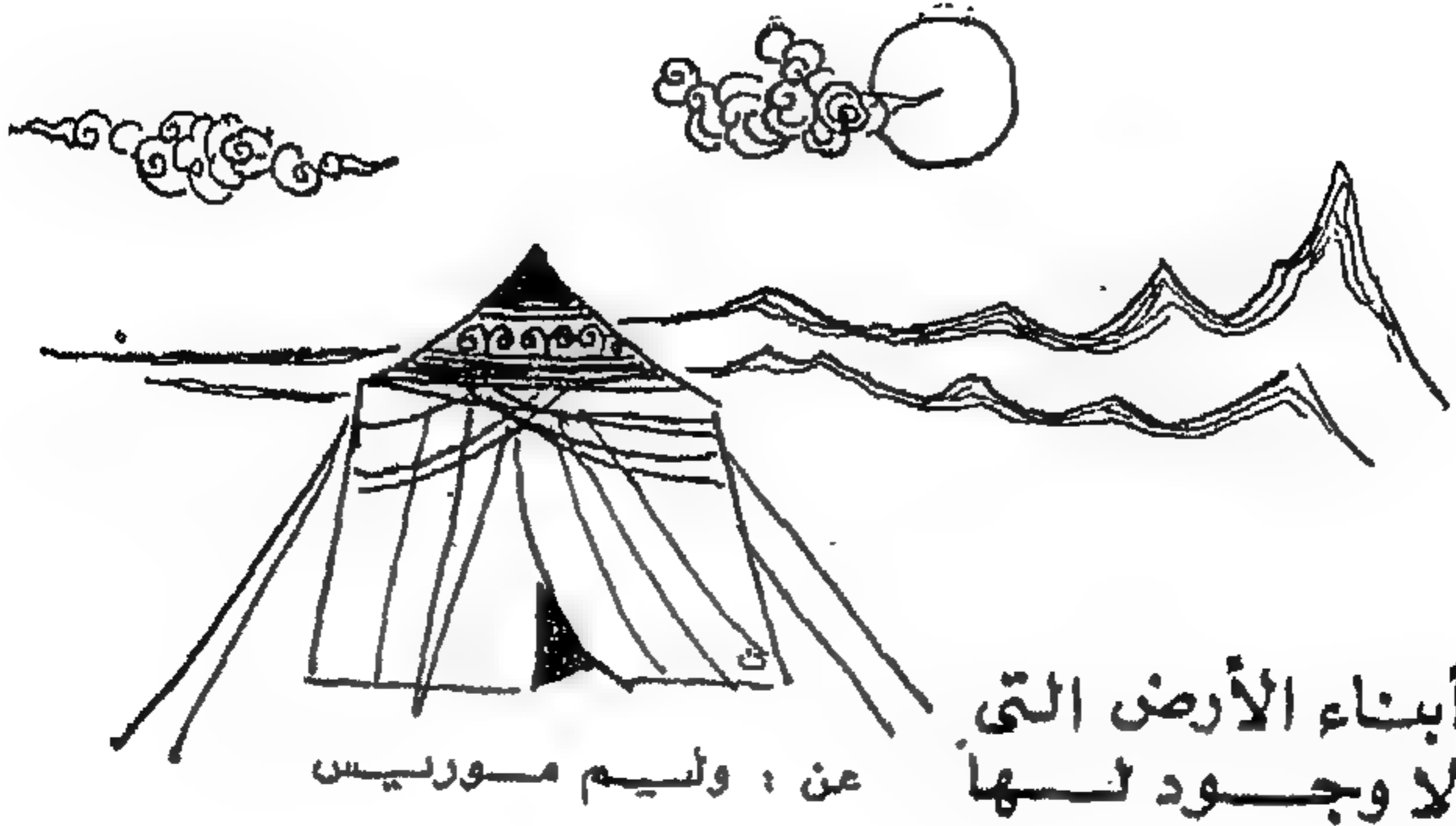
إذا كنا نتهم النبات بالغفلة لأنه لا يفقه من حياة
الإنسان شيئا ، فماذا يدري الإنسان عن حياة النبات ؟
هل تستطيع أن تنبئني كيف تحول بذرة الورد قدرا
التراب وهبة من الهواء وحفنة من الماء الى وردة
ربعة ؟ أتى لها اللون والأريج ؟ أ جاءت بهما من التراب
أ من الماء أم من الهواء ؟ ستقول منها مجتمعة .. ولكن
كيف ؟ خذ ترابا وماء وأرنى بكل ما بلفته من كيمياء
كيف تصنع منها وردة زكية الرائحة .. أ تحسب الوردة
زيادة غبية وهى تحول كتلة من الطين الى أوراق الورد ؟
أين الكيمياء الذى يصنع هذا أو شيئا قريبا منه ..
لا أ يجب أن نقر فى أذهاننا أن للوردة عملها وللإنسان
واجبه ، وليس من البلادة ألا يفقه أحدهما من أمر
الأخر شيئا .

ثم انظر الى العناية الذى يلاقيه النبات فى رد أعدائه
.. فهو يخدش ويجرح ويلدغ ويفرز الرائحة الكريهة
والعصارات السامة ، انه يتخفى حيناً ويخدع حيناً
آخر . انظر الى هذه الزهرة مثلاً تخشى أن تمتص
عصارتها الذبابة الخبيثة ، فتلف أوراقها على هيئة
ذابة لكى توقع فى وهم الذباب العابر انها زهرة امتصت
ر بعد فيها رجاء ! .. ان لم يكن هذا ذكاء فأين يكون
ذكاء يا أعداء النبات ؟

حسبى هذا القول يا قومى لأدلكم على ان النبات
رب من ضروب الحيوان أطلقنا عليه اسما آخر . فاذا

كان خطيئة من الانسان أن يقتل الحيوان ، فخطيئته
مثلها ان تقتلع النبات وتأكله .. وما يجوز أكله من
النبات هو ما مات منه .. اعنى الثمار الناضجة اذا
سقطت على الارض من تلقاء نفسها فى أواخر الخريف.
الا فليعلم الناس ان من يسحق البذور كمن يشد
الاطفال . أن حبة القمح لها روح حى كالانسان سواء
بسواء ، ولها ما له من الحق فى أن تحتفظ بهذا الروح
آمنا مطمئنا ..

اقتنع أهل ارون بهذه الحجج الدامغة .. ولكن
ماذا يصنعون ؟ .. ان العقل وحده لا يكفى ، ولا بد الى
جانبه من الاستماع الى صوت الفريزة لأنه صوت
الطبيعة .. لا بل لا أمل فى اصلاح أهل ارون الا أن
أيقنوا ان ما يمليه العقل وما توحى به الفريزة هما فى
الأعماق شىء واحد .



أبناء الأرض التي
لا وجود لها
عن : ولیم موريس

● نبذة عن حياة ولیم مورس :

ولد عام ١٨٣٤ في لندن ودرس في أكسفورد ، وقد
بدت فيه مخايل الفن ورغبة الاصلاح عند صدر شبابه
وكان قد بدأ حياته بدراسة دينية ولكنه لم يلبث ان
انحرف عنها الى دراسة التصوير ، وان له في هسدا
الجانب الأثرا عميقا في أواخر القرن التاسع عشر .

وانك لتلمح في كل ما أنتجه مورس خيالا خصيبا
والهاما غنيا ، فتراه يتدفق في سلاسة عجيبة ، وتقلب
شعره ونشره فترى صورا متزاحمة متلاحقة ، رسمها
من جوانب متعددة في أفق الحياة ، فصورها من الماضي
ومن الحاضر على السواء . . . ولكنك تلمح في خلال
هذه الصور المتتابعة المتباينة عنصرا واحدا مشتركا هو
نزوعه الى التجديد ، نزوعه الى جمال الريف دون
الحضر المعقد ، والكاتب يخلع على شخصوه جميعا
مسحة من حزن وأسى ، لعل حزنه هو من مر الزمان .
ومن صفات كتابته انه يمزج الحقيقة بالحلم مزجا يطبع

الكتاب بطابع غريب فيجعله كأنه خلط مهوش . ولكنه بلغ ذروة فنه في كتبه التى بعد فيها عن الحقيقة الواقعة ومنها هذا الكتاب الذى نحن بصدده : « أبناء الارض التى لا وجود لها » كتبه عام ١٨٩١ . وقد صور فيه أحلام الانسانية وامانيها ، ولكنه صورها على نحو يخيل الى القارئ انها قريبة جدا من التحقيق ، فهو يرسمها كأنها حقائق ملموسة ، ويرسم لنا ما ينبغى أن يسود الحياة من سعادة ، وعطف أخوى بين الانسان والانسان ، وعاطفة تخلو من القسوة الاليمة ، وعناء يخلو من اللذعة المريرة ، وعقل مطمئن بهادىء فى أرض جميلة هادئة

ومات مورس عام ١٨٩٦

أبناء الأرض التي لا وجود لها

أخذتني سسنة من النوم بعد حوار حاد مع بعض
الأصدقاء استيقظت بعدها موفور النشاط ، فقصدت
الى نهر التيمز أستمتع بهوائه ومائه ، وهناك الفيت
نوتيا عرض أن يستصحبني معه في قاربه .. وبينما
نحن سابخان اذا ببصر جسرا جميلا ، فسألت النوتي :
متى شيد ذلك الجسر ؟ فأجاب الرجل : انه قديم ،
أظنه قد أقيم عام ألفين واثنين فأخذتني دهشة
عجيبه عميقة أن أسمع الرجل يتقدم بالزمن قرنين ،
ولكني كتمت عجبى فلم أبد منه شيئا .. وما هي الا
أن رسونا على الشاطئ فأدخلت يدي في جيبى وأخرجت
للرجل أجر عمله ... فنظر الى الرجل نظرة المبهوت ..
أجر ؟ أجر ماذا ؟ أتؤجرني على عملي الذي أغتبط به ..
انه ليلوح لى انك غريب في هذه البلاد . نعم ، لقد
بلغت ان الناس منذ قرنين كانوا يؤجرون على العمل .
لكم يسرني ياسيدي أن أهديك في هذا البلد ما دمت
غريبا عنه ..

لم أدر ماذا أقول سوى أن أذعنت ، ومضيت ومضى
معى الرجل ، فرأيت في عرض الطريق غابة أمها كثير
من الاطفال يلعبون وأشار اليهم دليلى وقال : ان الاطفال
في هذا البلد يؤمون الغابات في فصل الصيف حيث

يقضون بضعة أسابيع ، يعيشون أثناءها في مخيم
يضربونه بأنفسهم ويتدربون كيف ينجزون بأنفسهم كل
ما يريدون ، وهم فوق ذلك يضربون في أرجاء الغابة
ليروا صنوف الحيوان في عقر دارها . ذلك لأننا نعتقد
عقيدة راسخة أنه كلما قل الأمد الذي يقضيه الأطفال
داخل الدور وبين الوالدين ، كان ذلك خيرا لهم . . بل
أن الكبار يقصدون الى هذه الغابات الحين بعد
الحين ، ليأخذوا أنفسهم بشيء من شطف العيش بعد
أن مهدت لهم الحياة هذا التمهيد الناعم في العهد الأخير
. . وانا لنطالب أبناءنا أن يتعلموا ركوب الخيل
والسباحة والطهى والنجارة وادارة المتاجر وما الى ذلك

فسألت الرجل قائلا : ألا تدربون أبناءكم تدريبا
عقليا ؟ فأجاب : أو لست ترى أن هذه الأعمال تكسبهم
مهارة وتفسح أمام عقولهم أرحب الفرص للمران
والتدريب ؟ ومع ذلك فنحن نعلمهم القراءة في سن
الرابعة ، ولكننا لا نرغمهم عليها ارغاما ، بل نفرهم
بها ما استطعنا الى الأغراء سبيلا ، أما الكتابة فتؤجل
زمنها خشية ألا يحسن الأطفال الخط ، والخط الجميل
غاية من غاياتنا . . وأما اللغات فقد تواضعنا على أن
نلقن الأطفال لغة أجنبية أو اثنتين قبل أن يبدأوا في
تعلم القراءة ، فاذا ما فرغ الناشئ من قراءته تركناه
وشأنه يطالع ما يشاء مع قليل من الهداية والارشاد .
على اننا لا نشجع القراءة في سن مبكرة الا ان بدأ في
الطفل ميل طبيعي الى ذلك ، لأننا نؤثر ألف مرة أن
ينفق الناشئ عهد الطفولة في فلاحه الساتين واقامة
الدور واعداد سقوفها ورصف الطرق وما شابه ذلك ،
وعندنا ان ذلك أنفع وأمتع .

وكنّا قد بلغنا مدينة ، ومست بى الحاجة الى بعض
التبغ أملاً به غليونى ، فأخذنى صديقى الى متجر نظيف
انىق حيث أعطتنى الفتاة ما أريد ، فهمت أن أنقدها
ثمن ما اشتريت ، ولكن الفتاة ففرت فاها من العجب
لهذا التصرف الشاذ .. أن الامر فى هذا البلد قد أقيم
على غير قاعدة البيع والشراء ! ..

وذهبت مع رفيقى الى دار لاقيت فيها رجلاً تقدمت
به السن ويحسن الحديث فى شئون العهدين الفابر
والحاضر ، فتركنى رفيقى مع ذلك الرجل لأنه قابل
حبيبته وانصرفا معاً .. فأخذت شجون الحديث تتوشج
بينى وبين ذلك الرجل المحدث ، فعرضنا لطائفة من
الموضوعات وعلمت منه كثيراً عما يجرى بينهم فى شأنها

فمنظر الشباب وحبيبته قد أثارا مشكلة الزواج
والحب والطلاق ، ومن هذه طرقنا موضوع المحاكم التى
من شأنها أن تصل الود بين الزوجين أو تفصله ..
فقال محدثى : لا ، لم يعد بيننا محاكم للطلاق لأننا
لا نفهم أن تنشأ محكمة لعقد عاطفة بين شخصين ! أن
هذه المحاكم كانت قائمة فيما مضى ، لأن آباءنا كانوا
يأخذون بمبدأ الملكية الخاصة، فكان حتماً أن تقوم
المحاكم بفض الخلاف ، أما اليوم فلا ملكية ولا خلاف
ولا محاكم .

اننا لا نخدع أنفسنا فنحسبنا قادمين على حب
جنسى يدوم ما دامت الحياة .. كان الناس فيما مضى
يغالطون أنفسهم فيظن الرجل أنه كل شيء فى عينى
حبيبته ، وأن حبيبته تلك بلغت من الكمال والجمال
أعلى الذرى فما أسرع ما كان يذبل الامل ويذوى ،
فيصعق الرجل ويصيبه أسى لا تنقطع أسبابه ..

نحن اليوم صحاح الابدان ميسورة حياتنا ، ونحاول ما استطعنا أن نستمد من الحياة الدنيا أكبر لذة ممكنة ومن دواعي فخرنا اننا لا نركز أفكارنا في نفوسنا ، ونفرض أن العالم كله سيصاب بجمود الحركة لأن رجلا قد مسه الحزن .. اننا نعتقد ان من الحق بل من الاجرام أن يبالغ الناس في شئون العاطفة وما يتعلق بها ، فيجب أن يحاول كل شخص أن يكتف في نفسه بالام عواطفه وآلام جسده على السواء . لاند أن نعلم ان في العالم لذة أكبر من الحب .. فنحن نستخف بالآلام العواطف ولا نذهب مذهب الاقدمين في أن تحمل عبثها بطولة ورجولة .

فاذا أراد زوجان منا ان ينفصلا فليفعلا ما بدا لهما ، فمن القفلة أن نرغمهما على الود ما دام الود قد جفت أسبابه بينهما .

وسألت محدثي عن موقف النساء فأجاب : لم يعد يثور بيننا ما كان قائما في القرن التاسع عشر من جدل عنيف حول حقوق المرأة وحريتها ، فلا الرجال يفتاتون على النساء ولا النساء يطفين على الرجال ، فالنساء يؤدين ما يحسن أداءه وما يطيب لهم عمله ، ولا يعارضهن الرجال في هذا .

فقلت : ولكني شهدت النساء هنا يطهين الطعام ويقدمنه للرجال . فقال : وهل تحسب تدبير الدار مهنة لا تستحق الاجلال والاكبار ، كان هذا فيما أظن رأى النساء « المتمدينات » في القرن التاسع عشر ! ان المرأة الذكية يشرقها أن ترعى الدار رعاية تستدعي من الناس الاعجاب .

قلت : ان المرأة في القرن التاسع عشر كانت تطالب

ان تتخلص الممتازات من النساء من عبء الحمل والولادة ،
فما رأيها في ذلك الآن ؟

قال : انه حمق لا ساس له وهو نتيجة طفيان طبقة
على طبقة مما كان سائدا في العصر الغابر الدابر . . ان
الأمومة عندنا شرف عظيم . وقد تخلصت الأم بيتنا
من القلق الذي كان يساورها فيما مضى على مستقبل
أبنائها لأنها تعلم علم اليقين ان الدولة ترعاهم وتهيئ
لكل منهم من العمل ما يلائمه .

فانتهزت فرصة ذكر الأبناء وسألته رأيه في التربية
قائلا : ماذا ترى في تربية الناشئة ، ولو أنى قد انبثت
انك خلقت بين أطفالك وبين الطبيعة دون أن تعلمهم
شيئا ؟

فقال : يلوح انك عتيق الراى في التربية ، فتذهب
الى ماكان يذهب اليه الأجداد من تعليم النشء معلومات
لم تراع فيها الدقة البالغة . . . معلومات يفرض على
الناشئ أن يزدردرها ازدرادا سواء أرادها أو لم يرددها ،
معلومات طالما لاكتها الأجيال دون أن تعنى بتصحيحها ،
ومع ذلك نرى كل جيل يحرص على تلقينها للجيل الذي
يتلوه وهكذا . .

هل تريد يا صديقى أن نلقى بأبنائنا في المدرسة ، اذا
ما بلغوا سنا نتواضع عليها ، مهما تكن قدرتهم على
الفهم ومهما اختلفت فيهم الملكات والميول ؟ هل تريد
أن نلزم هذا الجميع المتباين من الاطفال أن يخضع لنظام
واحد وبرنامج واحد ، بغض النظر عما ركبتهم فيهم
الطبيعة من أوجه التنافر والخلاف ؟ ألسنت ترى معنى
يا صديقى ان ذلك انكار صارخ لحقيقة النمو الجسماني
والعقلي ؟ انه ليخيل الى ان المدارس كما كانت عند

آبائنا أشبه شيء بالطاحون تسحق الاطفال سحقاً ، ما لم يكن لدى الطفل ميل الى الثورة على النظام المفروض ، وعندئذ ينجو بنفسه من ذلك الخطر الداهم . ولحسن طالع الانسانية ان الكثرة الغالبة من الاطفال كان فيهم هذا النزوع الى العقوق والثورة ضد مدارسهم ونظمها ، ولولا ثورة أولئك الايفاع الصغار على تلك النظم ثورة متصلة لم تنقطع ، لما بلغت الانسانية ما بلغت اليوم ؟

وأحسب ان ذلك كله كان من نتائج «الفقر» وظواهره فقد كان يسود القرن التاسع عشر فقر مدقع بسبب السرقة المنظمة التي وضعها المجتمع اذ ذاك وأقام على أساسها كل شيء . ولذا استحوالت التربية الصحيحة على أى انسان كائناً من كان ! كانت التربية — أو ذلك الكائن المسوخ الذى كانوا يسمونه التربية — عبارة عن تلقين الطفل قليلاً من العلم ، وان رغب الناشئ عن ذلك حققت عليه اللعنة والعذاب ، ولبث طوال عمره محروماً من التعليم !

وأعود فأقول ان الفقر هو علة العلل فيما كان — أما اليوم فما أنت ذا ترى العلم كله معروضاً يستقى منه من شاء ما شاء ، وبذلك زادت ثروتنا العلمية واشتد خصبها ، وانفسح مجال النمو أمام الجميع .

فاعترضته قائلاً : أنتم اذن تتركبون للناشئ مطلق الحرية في ان يطالع ما يشاء كلما مال به هواه دون رادع أو زاجر . . . فذهب طفلاً أو شاباً لا يميل الى تحصيل العلم . . . أو افرض ان طفلاً يعارض في تعلم الحساب ، أفلا يحسن أن نلزمه بذلك الزاماً وهو في دور الطفولة النامية قبل أن يتعذر ذلك ؟

فسألنى الرجل : كم بلغت من العمر ؟

فأجبتة : بلغت ما يدنو من خمس وستين .
فقال : وكم بقى لك مما تعلمت في طفولتك من الرياضة
والحساب ؟

فقلت : لم يبق لى منهما شيء مع الأسف !..

وانتقل الحديث من التربية الى موضوع آخر . فقد
أخذ الرجل يحدثني عما كان قائما في بلدهم في الزمن
الداير من مساكن حقيرة تمجها النواظر ، أعدت للفقراء !

قال الرجل : أما اليوم فقد دكت تلك الوصيات دكا
ومحوناها من وجه الأرض محوا .. ان القوم في هذا
البلد يحتفلون كل عام بعيد يحيون به ذكرى « محو
الشقاء » ، فترى الرجال والنساء يرقصون في ذلك
العيد ويغنون ويمرحون على موقع أحقر منازل الفقراء
فيما مضى ، اذ لا تزال نحتفظ بموضعه للذكرى ! في ذلك
العيد تغنى الفتيات الجميلات بعض الاناشيد الثورية
القديمة التي كان يتغنى بها الاشقياء في الزمن الغابر
لينفسوا عن كرب نفوسهم ، الاشقياء الذين كانت رحاب
الامل قد ضاقت في عيونهم .. نعم ان الفتيات الجميلات
يغنين ويرقصن على المواضع التي كانت تهدر فيها
الطبقات ، والمواضع التي كانت الطبقات الرفيعة تفتك
فيها بالطبقات الوضيعة كل يوم فتكا ذريعا امتد طوال
العصور .. وما أجلى لمثلى - ممن درسوا الماضي وعرفوا
كوارثه - ان يرى فتاة جميلة ترقص وتغنى على بقعة
من الأرض كانت فيما مضى منزلا - أو قل كانت كومة
قدرة يطلق عليها خطأ اسم منزل - وهو في الواقع وكر
ممقوت قدر يأوى اليه بعض الرجال والنساء ، الذين
ما كانوا ليطبقوا الاقامة فيه ليلة واحدة لولا انهم جردوا
من معنى الانسانية تجريدا .. فكر يا صاحبي في هذا

التحول الذى بدل البؤس عظمة وجلالا !

وجذبنا الحديث الى الحكومة فقلت لمحدثي : اود ان ألقى سؤالا أخشى أن يكون جافا عسيرا .. ما حكومتكم القائمة وما شكلها ؟ ترى هل انتصرت قوة الشعب ، أم انتهى الامر الى طفيان الدكتاتورية التى كان يتنبأ بها بعض الكتاب فى القرن التاسع عشر باعتبارها نتيجة محتومة للديمقراطية ؟

فقال الرجل وهو يبتسم : نحن اليوم يا سيدي أحرار ! فليس بيننا حكومة تبسط علينا سلطانها

ان الحكومة كانت فيما مضى ثمرة الطفيان واداة الطفيان فما حاجتنا اليها اليوم وعهد الاستبداد قد انقضى الى غير رجعة ؟ .. كانت الحكومة تحمى الاغنياء من الفقراء ثم توهم هؤلاء الفقراء البائسين انها انما تحميهم هم من غزوات الدول الاجنبية !، وماذا على الفقراء أن تغزو فرنسا انجلترا ما دام العامل الانجليزى لن يكون أسوأ حالا ؟ نعم لن تسوء حال العامل أكثر مما كانت ، الآن صاحب المال لم يكن يترك له من ثمرة عمله الا ما يقيم أوده ، فلا عليه بعد ذلك ان كان سيده ذاك انجليزيا أو فرنسيا !

واستطرد محدثي يقول : لقد يسرنا الحياة وشذبنا من أطرافها تلك النواتيء من تقاليد ماضية وحاجات ثقيلة مما كان يبهظها فى العصر الغابر .. فقد كان العيش فيما مضى صراعا متصلا وتقاتلا لا ينقطع . واعلم أن الحياة فى صراع « هنة هينة لا مشقة فيها ولا عسر ، انما المشقة والعسر فى الحياة التى يضبط الافراد أنفسهم فيها عن المقاتلة والسرقة بعضهم من بعض .. وقد نجح أهل هذا العصر فى ضبط أنفسهم ، فكان ذلك

سر سعادتهم التى تراها بادية فى وجوههم . . كان الناس فيما مضى يعتدى بعضهم على بعض ، ومن كان منهم عفا اليدين كان موضع الزرابة ، لا يمجده القوم فى حياته ولا يخلدونه بعد موته أما اليوم فلا يعتدى انسان على حق انسان ، وان اعتدى أحد لحد ذلك منه هفوة صديق نحو صديق يعتذر له عنها ، أعنى أن المجتمع لا ينبذه باعتباره عدوا لم يعد يصلح للحياة بين أعضائه .

فسألته : أتريد بذلك ان ليس بينكم فئة « المجرمين » فأجاب : وكيف ننتظر أن يكون هؤلاء بيننا وليس منا أغنياء يثيرون الحقد فى صدور الناس حتى ينتهى بعضهم الى شق عصا الطاعة للدولة التى ظلمته .

انه لم يعد لدينا ما كان يسعى فى العهد الداير « بالقانون الدولى » . ذلك الآن القانون والمحاكم كانت قائمة لتحمى الملكية الخصوصية ، وما دامت هذه الملكية قد أجتثت من جذورها ، فقد أمحت الجرائم التى كانت تنشأ بسببها ، ولم تعد بنا حاجة الى محكمة أو قانون .

فسألته : وما شأن سائر الجرائم عندكم ، فأحسب أن الجريمة لا بد من وقوعها ، وما أظنكم قد ألغيتم فيما ألغيتم القانون الجنائى ؟ . .

فقال : ليس لدينا قانون جنائى بالمعنى الذى تقصده . . فكر معنى فى الأمر لنرى كيف تنشأ الجرائم . أن معظمها كان ينشأ فيما مضى بسبب الملكية الخصوصية لأن قيام الملكية يثير الطمع فى الصدور ، حتى لا ترى أحدا قانعا بما عنده ، فلما انقضى عهد الملكية انقضت جرائمها . . وسبب آخر للجرائم هو فهم العواطف

الجنسية فهما باطلا ، فكان ذلك علة كثير مما كان يقع بين الناس من غيرة وشقاء .. ولو فكرت في أساس الأمر الألفيته فكرة وهمية خلقها القانون ، وهى أن المراه ملك للرجل ، سواء اكان الرجل زوجها ام اباهام اخاهام ام كائنا من كان .. فلما امحت فكرة الملكية ذهبت هذه النزعة ادراج الرياح .. وسبب تلك الجرائم هو طغيان الأسرة ، وذلك ايضا احدى نتائج الملكية الخاصة ، وقد انتهى ذلك ، لأن أفراد الأسرة لم يعد يربطهم رباط قانونى او اجتماعى بل تصلهم صلة الود والمحبة ، ولكل عضو فى الأسرة ان يتصل بها او يفصل عنها حينما اراد .. أضف الى هذا ان مقاييس الشرف والتقدير قد تغيرت ، فأصبح لكل انسان الحق فى ان يستغل ملكاته الى اقصى حدودها دون ان يلقى فى سبيله عثرات الفيرة التى كانت تفتك بالنفوس ، ان كثيرا من شقاء الانسانية فيما مضى كان سببه هذه الفيرة المقوتة التى دفعت فئة كبيرة من الناس الى الجريمة .

ولست اريد بذلك ان الجريمة قد نضب معينها . فلا يزال فى الناس بعض النزق فيضرب احدهم الآخر فيعتركان فينتهى الأمر بالقتل أحيانا . ولكن ماذا تصنع بالقاتل ؟ أنقتله ؟ كلا لا نفعل ، لأننا نزن أمورنا بالميزان الصحيح ، فقتل القاتل لن يعيد الحياة للقتيل ولن يمحو شيئا من الأسى فى نفوس ذويه .

قلت : ولكن ألا ترى ان سلامة المجتمع لا تستقيم بغير حساب وعقاب ؟

قال : لقد أصبت شاكلة السداد . ما العقوبة التى طالما لم تتصرفوا فيها تصرف الأحمق تحدث الناس عنها

حديث الحكيم البليد ؟ العقوبة تعبير عن الخوف ..
وقد كان للناس عذرهم أن يأخذهم الخوف ما داموا
يرون ذوى السلطان بينهم يمتشقون السلاح ليتقوا
خطر الرعية التى يحكمونها .. كأنما الأمر بين الحكومة
والشعب ليس أمر الجند وقائذه ، بل الطير وصائده .
أما نحن اليوم فنعيش بين فئة من الاصدقاء ، لا تستشعر
الخوف ولا تستنزل العقاب .

قلت : هب رجلا تعود الاجرام ، فيقتل رجلا فى
كل عام مثلا ، فماذا أنتم صانعون به .

فقال : يستحيل أن يحدث هذا فى مجتمع لا قانون
فيه ولا عقاب ، لأن العقوبة تفرى النفس بأن تحاول
الاجرام والافلات من العقوبة ، ولأن القانون يفرى
بالاعتداء عليه .. ومع ذلك فان أمعن رجل فى اجرامه
كان فى رأينا مريضا يجب علاجه - بالمجنون سواء
بسواء ولكن أمره فى الأعم الأغلب هو أن يحزن الفاعل
على فعلته ويشعر بلذعة الضمير ، فيستغفر من وقع
عليه الاعتداء .

قلت : أتحسب الاحساس بالحزن بعد الجريمة
رادعا كايا ؟

قال : نعم . فضلا عن ان ذلك هو ما فى وسع الانسان
أن يعمله .. أما ان عذبنا المجرم فسيتحول حزنه الى
غضب ورغبة فى الانتقام .. ان مذهبنا هو ان الاجرام
مرض عصبى يحتاج الى الطب والتمريض لا الى القانون
والتعذيب . ولما كنا - بوجه عام - صحاح الابدان فنحن
بمنجاة من هذا المرض .

قلت : لقد ألغيتم اذن قانونكم المدنى والجنائى .

ولكن أحسبكم قد احتفظتم بقانون ينظم التبادل بين الناس في السوق ، لأنه مهما يكن شأنكم في الفاء الملكية فالتبادل شيء لا محيص عنه .

قال : نعم ، قد تواضعنا على قواعد نسير وفقها في تبادل السلع . ولست أحب أن أسميها قوانين ، لأنها تمت برضا الناس أجمعين ، وليست بينهم من تغريه أطماعه ، بالاعتداء عليها . أما القانون فهو قرين العذاب لفريق من الناس . فإذا رأيت القاضي مستويا الى منصته ، رأيت خلاله - كأنه منشور من زجاج - رجال الشرطة والسجن والجلاد .

ومسنا السياسة بالحديث فسألت محدثي : وكيف تديرون شئونكم السياسية ؟

فأجاب في لهجة قوية : لا سياسة عندنا . وان قدر لهذه المحاورة أن تنشر في كتاب ، فأرجو أن تفرد لهذه العبارة القصيرة بابا خاصا .

فسأله : وكيف تقوم علاقاتكم مع الدول ؟

فأجاب : اننا لما قضينا على أوجه التفاوت بين الانسان والانسان ذهب التنافر والتنافس الدنيء بين الأمم فاعترضت قائلا : ولكن أليس ترى أن محو جوانب الخلاف بين الأمم يسئ الى الحياة ولا ينفعها ؟

فأجاب : كلا ، ان الخلاف موجود . فاعبر البحر وانظر تر ألوانا شتى من التباين ، ولكنه تباين ليس بين بنى الانسان كالذى كان ، بل خلاف وتنويع في مناظر الطبيعة وأنماط البناء وألوان الأكال وصنوف اللهو والسلوى . ان أفراد البشر يختلفون اختلافا فسيحا في الاشكال والعادات وأنواع التفكير فهل يضيف

الى هذا التنوع شيئاً أن تحارب أمة « أمة » لتخضعها ؟ هل يضيف الى التباين القائم شيئاً أن تثير في النفوس شعور الوطنية ، وهو حق وتفكير باطل أساسه التعصب المرذول ؟ . . . اننا حين حررنا أنفسنا من تلك المهزلة الخبيثة ، تبين لنا في جلاء ان الخلاف بين الاجناس يسير على الرقى ويعمل على تحقيق سعادة العالمين ، فكلنا يسعى الى غاية واحدة ، وهي أن نستغل الحياة الدنيا الى الحد الأقصى ، وقلما ينشأ نزاع على ذلك بين الاجناس ، الا ان اصطنعناه اصطناعاً . .

قلت : وما رأيكم في الخلاف بين أهل الأمة الواحدة في الرأي ؟

قال : ان الخلاف في الرأي لا ينبغي قط أن يشقق الناس الى أحزاب متنازعة متقاتلة . . بل اعلم يا صديقي ان السياسة في العهد القديم كانوا يدعون ادعاء باطلا انهم مختلفون في الرأي ليبرروا بذلك الوهم انقسامهم الى أحزاب ، وغابتهم من هذه اللعبة أن يبتزوا من أفراد الشعب مالا ينفقونه على أنفسهم في حياة باذخة مترفة .

قلت : ولكن الخلاف السياسي بين الافراد جزء من طبيعة الانسان فيما أظن ؟

فأجاب : طبيعة الانسان ! أية طبيعة تريد ؟ طبيعة الفقراء والعبيد أم طبيعة الاغنياء الاحرار ؟ . . ان نشأ خلاف في الرأي فذلك أمر موقوف زائل لا يبرر ان تدوم الخصومة بين الاحزاب . . فان الناس لا يختلفون في الأمور الشخصية كاللباس والطعام والكتب التي تقرأ والتي لا تقرأ ، وذلك لأن الامر فيها لا يمس المجتمع . ما ان كان مما يتصل بمصالح الناس المشتركة فليكن

الرأى الفصل لأغلبية الناس : . . فلا طفيان لفرد أو
لاقلية مستبدة !

وسألت محدثي : كيف يحفزون الناس للعمل ان
كانت الملكية الخاصة محظورة . فأجاب : ان جزاء
العمل يا صديقي هو « الحياة » ! ألا تكفى الحياة حافز
للانسان على العمل ؟ . . فاعترضت بأن المجيد والمسيىء
مستويان . . فقال : هذا خطأ . ان مكافأة المجيد هي
اللذة التى يجدها فى الخلق والابداع . ان من طبيعة
الانسان أن يخلق ولا يطالب بأجر على ذلك ، والا
لجاءنا الآباء يطالبوننا بأجر على نسل الأبناء ! !

قلت : ولكن أهل القرن التاسع عشر يردون على
ذلك بأن للانسان ميلا طبيعيا للانسال ولكنه لا يرغب
بطبيعته فى العمل .

فقال : لا ، اننا تكفر بهذا القول ولا تؤمن به . فهو
زعم معناه ان العمل شقاء كله ، وليس الامر عندنا
كذلك . بل هو على نقيض ذلك ، لقد بثنا فى العمل
لذة تفرى الناس به ، وليس ذلك بعجيب ، اذ الفنان
الحق يستمتع بما يؤديه ، وعمالنا يأخذون العمل على
انه فن جميل ، كل يختار ما يستمتع به .

قلت : يخيل الى ان هذا التطور فى وجهة النظر
الى العمل أهم وأعمق مما حدثتني عنه فى الجريمة
والسياسة والملكية والزواج . فكيف تم لكم هذا ؟

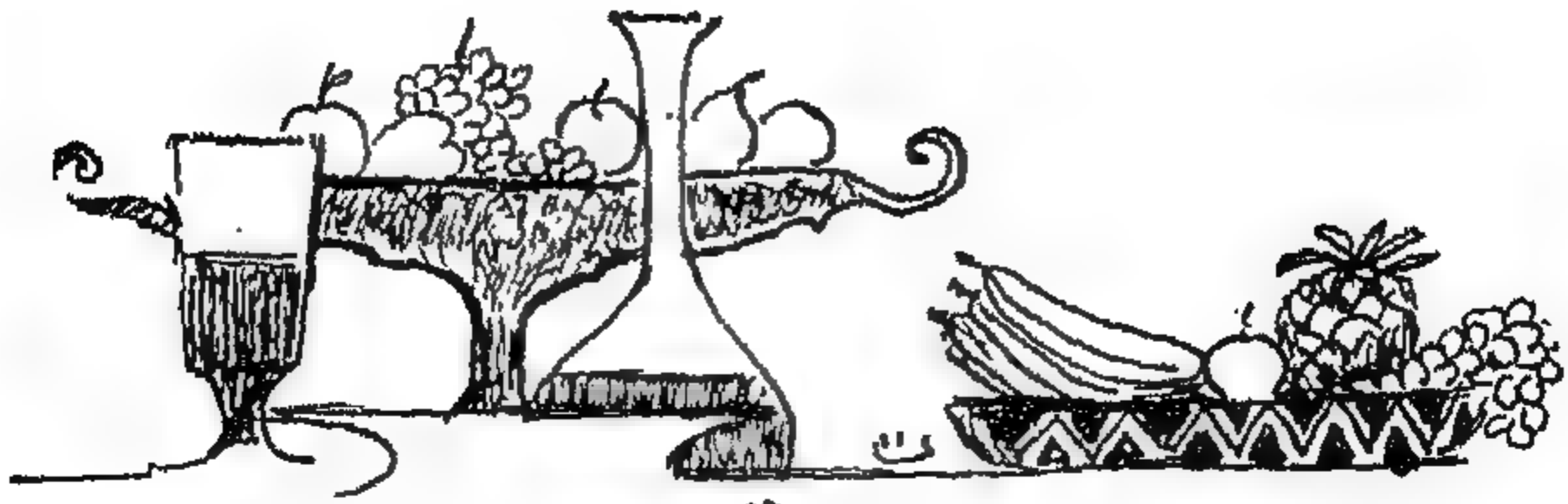
فأجاب : ثم لنا هذا التغير حين محونا الروابط
المصطنعة التى كانت تربط الافراد فيما مضى وتركنا
لكل انسان مطلق الحرية فى أن يعمل ما يحسنه
ويتقيه ، وما علينا الا أن نلائم بين الانتاج وبين مايريده

السكّان . . انى أعلم مما شغفت وما قرأت ان الناس
 فى العهد الفايبر قد أصابهم السوء حين أمعنوا فى كثرة
 الانتاج بغير ملاءمة بينه وبين القدر المطلوب . أنهم
 يسروا طرائق الانتاج تيسيرا كبيرا وأرادوا أن يستغلوا
 ذلك الانتاج السهل بأن يغمروا السوق بالسلع ، سواء
 أكان العالم بحاجة الى هذه السلع أم لم يكن ، وقد
 ضحوا بكل شىء فى سبيل « الانتاج الرخيص » - كما
 كانوا يسمونه - فضحوا بسعادة العامل فى عمله ، بل
 بصحته وطعامه وكسائه ومأواه وفراغه ولهوه وتعليمه
 . . بل قل ضحوا بحياة العامل كلها ! اذ لم تكن
 حياة العامل فى نظرهم تزن جناح بعوضة اذا قيست
 الى الرغبة الجارفة فى كثرة الانتاج الرخيص ، مع ان
 كثيرا جدا مما كانوا ينتجون لم يكن يستحق غناء
 صناعته . وأعجب العجب ان العامل قد استطاب هذا
 العيش الاغبر فجاء ذلك مصداقا لما يقال من ان الخنفساء
 تتعود العيش فى الروث . . . انهم اخترعوا الآلات
 ليوفروا العمل ! يالها من أضحوكة ساخرة ! . . أعلم
 يا صديقى ان كل محاولة أريد بها تقليل العمل قد انتهت
 الى زيادة . ان شهوة الاسواق قد زادت بما كانت
 تطعم به ، وباتت كل يوم تصيح : هل من مزيد !
 فانطلق العالم المتمدين - أقصد العالم الذى امتلأ
 بالشقاء المنظم - يفتزو البلاد بالقوة والخداع ، ويستتر
 وحشيته بفشاء رقيق يشف عما تحته فى غير عسر ،
 فيزعم انه يطلب انقاذ الانسانية من بيع الرقيق ،
 مع ان استعباد التجارة أشد وأقسى ! أو يزعم انه يريد
 ادخال دين جديد مع ان أصحاب ذلك الدين لم يعودوا
 يؤمنون به ! أو يزعم انه يقصد الى انقاذ حاكم ثارت
 عليه رعيته مع انه حاكم مجنون سقط بعمله السيئ

في نفوس مواطنيه « الهمج ! » ... هكذا كان العالم
المتمدن يتوكأ على أية عصا صادفته ، فاذا ما تم له
الفتح ، فرض مصنوعاته على الاهالي فرضا ، مع انها
مصنوعات لا قيمة لها ، وأخذ «بذل ذلك» مجصولاتهم
الطبيعية . وهذا الذي أطلق عليه اسم « التبادل » ان
هو الا سرقة ممقوتة !

اننا اليوم لا نصنع الا ما يلزمنا في حياتنا ، اذ من
الجنون ان نصنع سلعا لا ندرى من امرها شيئا . .
ونصنع أشياءنا على النحو الذي يبعث اللذة في نفس
الصانع ، فان كان عملا ثقيلًا على النفس عملناه بالآلات ،
وان كان مما يثير استمتعا صنعناه بالأيدي . وليس
شاقا على الدولة ان تجد لكل فرد العمل الذي
يناسبه وبهذا أصبح العمل متعة الروح والجسد ،
وأصبح شيئا نسعى اليه ولا ننفر منه .

وهنا دق ناقوس الغداء فذهبنا الى ساحة السوق
حيث شهدنا حشدا من الناس في بهو كبير اجتمعوا
ليأكلوا على موائد عامة ! أما الطعام فشهى لذيد يدل
على ان طهاته مشفوقون بعملهم فأتقنوه صنعا . . ولن
أبالغ مهما أطلت القول في نظافة الاواني ودقة الخدمة
وجمال النظام . . .



يوتوبيا حديثة عن: ه. ج. ولز

● نبذة عن حياة ه. ج. ولز :

ولد هيربرت جورج ولز في « بروملي » بمقاطعة « كنت » بإنجلترا عام ١٨٦٦ من أسرة تقع من طبقات المجتمع في الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى . وقد استخدم في صدر شبابه في متجر للأقمشة ، ثم اشتغل مدرسا مساعدا في إحدى المدارس ، وبعدئذ التحق طالبا للعلوم يستمع الى محاضرات هكسلي ، ولبت كذلك حتى ظفر بدرجة في العلوم من جامعة لندن . ومنذ ذلك الحين أخذ يلقي دروسا بتلك الجامعة . وأخرج كتباً منها كتابه في عالم الحياة . ووفق يكتب كتاباً متصلة في المجالات حتى ذاع اسمه في الناس . . ولعل أول ما استوقف انتباه القراء اليه هو قصصه القصيرة التي أقامها على موضوعات علمية . وهذا الضرب من القصص هو الذي جعله من أوسع الكتاب شهرة في أرجاء العالم في هذا العصر ، وأصدق مثال لهذا النمط من مؤلفاته قصته « آلة الزمان » .

وولز يدين بمذهب الاشتراكية ، وقد كان عضواً في جمعية « الاشتراكية المعتدلة » ، ولكنه انفصل عنها فيما بعد ، وشق لنفسه طريقاً خاصة به في تعميم آرائه

الاشتراكية . فأخذ ينشر فيها الكتب تباعا وفي صور مختلفة ، من ذلك كتابه « الاشتراكية والزواج » وكتاب « عالم جديد مكان عالم قديم » ومجموعة فصول سماها « آمال مرقوبة » وكتاب « الانسانية في دور التكوين » وكتاب « يوتوبيا جديدة » وهو الذي عنيانا بتلخيصه هنا وقد أصدره عام ١٩٠٥ . . ولم يلبث ولز أن انصرف بكل عنايته الى هذه الدراسة الاجتماعية حتى جعلها محورا يدور حوله ما يكتب من قصص . . حتى اذا ما وضعت الحرب أوزارها أخذ يفكر وينشر في إعادة تنظيم العالم من جديد ، على انه حقيقة واحدة متصلة لا تفرقة في أجزائها . . ومن أهم ما أخرجته لتحقيق هذا التنظيم الجديد هو كتاب « الانسان : عمله وثروته وسعادته » (١)

هكذا نرى ان انتاج « ولز » الادبي قد انصرف معظمه نحو اصلاح العالم على أساس اشتراكي معقول . . وسنراه في هذا الكتاب الذي نوجزه ، يقدم الصورة المثلى التي يريها للناس في هذه الحياة الدنيا

(١) قد ترجمنا منه فصولا ونشرناها بعنوان « الاغنياء والفقراء » .

يُوتوبيا حديثة

كانت المدائن الفاضلة التي سبقت عصر « دارون » تصور الدولة المثالية كائنا آسنا لا يتحرك ولا ينمو كأنما هو قد بلغ حد الكمال ، وكأن الدولة قد كسبت لنفسها أسباب السعادة وتخلصت من ألوان الاضطراب والقلق والفوضى الى ابد الآبدين . . نعم ، كانت أمنية الفلاسفة قبل دارون ان تتألف الدولة من شعب قليل فاضل سعيد متشابه الافراد ، ثم تعقبه أجيال وأجيال صبت على غرار الصورة السابقة . . وهكذا حتى يقضى الله في العالم أمرا كان مفعولا . . . واذن . فلم يكن كتاب المدائن الفاضلة قبـل نظرية التطور يعترفون بضرورة التغير والتحول في الدولة وأفرادها . أما « اليوتوبيا الحديثة » فأول ما تنشده ان تكون الحياة متدفقة متطورة عصرا بعد عصر ، فلن نصورها دولة كتب لها الدوام . ولكننا سنرسم حالة نعتزف انها حلقة من سلسلة متصلة كان قبلها حلقات وسيأتى بعدها حلقات الى غير نهاية معروفة . فلست اليوم أحاول أن أصد تيار الحياة الجارف كما حاول السابقون ، بل أريد أن أطفو على ذلك التيار لأفيد بعنفه وقوته . فلو مثلنا المدينة الفاضلة القديمة بحصن مكين القوائم لا يحول ولا يزول ، كانت مدينتى الفاضلة التي أرجوها

أشبهه شيء بدولة سابحة على ظهور السفائن لا تنفك متحركة متغيرة وذلك هو الفارق الاول بين « يوتوبيا » أقيمها على الآراء الحديثة وبين السوابق التى أنشأها كتابها على الافكار الماضية .

أريد أن أصور حياة يمكن عقلا أن تظهر فى عالم الوجود بحيث تفضل الحياة الراهنة . ولن أخطيء كما أخطأ السالفون فأشير بقلب طبائع الانسان والاشياء ، وبأن يكون أفراد الناس جميعا على قسط موفور من الحكمة والتسامح والنبيل والكمال . . ولن أدعو الناس الى حال من الفوضى المنسقة فأنادى بأن يعمل كل فرد ما يروق له ، زاعما ان أحدا لن يطيب له أن يؤثر الشر . . فليس مثل هذا العالم الكامل من ممكنات الزمان والمكان ، ففي الزمان والمكان تسود « ارادة الحياة » التى لا بد أن تستتبع ألوانا من الظلم . . وسأحاول ما استطعت أن أكون عمليا فى التفكير فأحدد نفسى بما هو فى مقدور الطبائع البشرية كما هى اليوم ، وسأرسم الدولة المثلى فى عالم تتعاقب فيه الفصول وتقلب ، وتنزل بالناس الكوارث المفاجئة والأمراض الفاتكة ، وسأصور الناس بحيث أعترف لرجالهم ونسائهم بالعواطف المتغيرة والرغبات المتقلبة فأنا أسلم بأن العالم قائم على صراع وتنازع ، وفى هذا أيضا أخالف أسلافي من كتاب المدائن الفاضلة .

ولكنى ان اعترفت بمبدأ الصراع بين الاحياء فسأطلق لنفسى كل حرية فى تصويره بحيث لا أعدو حدود العقل البشرى كما أعلمه ، وسأطلق لنفسى كل حرية كذلك فى تصوير بناء الوجود الذى فى مقدور الانسان أن يبدله اذا أراد ، لأنه هو الذى صنعه لنفسه

بارادته ، فسأصور كيف شئت المنازل والطرق والملابس والقنوات والآلات والقوانين والتقاليد والحدود والعهود والمدارس والادب والدين والعقائد والعادات وما الى ذلك مما يستطيع الانسان أن يبدله .. وأحسب ان ذلك هو الأساس لكل مدينة فاضلة قديمة أو جديدة ، أعنى أن نحرر الانسان من تقاليده وعاداته وقوانينه ، ومما تستتبعه الملكية الخاصة من استعباد ورق .. وأحسب ان كثيرا من الآراء النظرية التي قالها أصحاب المدائن الفاضلة فيما مضى ، تنحصر قيمته في هذا السعى نحو الحرية الانسانية ، فللإنسان رغبة أبدية خالدة في أن يفلت من قيوده ، وفي مقاومة ما تخلف من آثار الماضي ، وفي أن يبتكر ويسعى وينتصر ..

ان المدائن الفاضلة القديمة معيبة لأن حرارة الحياة الواقعة ودماءها لا تسريان في أجسامها . فليس فيها أفراد متميزة أشخاصهم ، ولكنها كانت تقتصر على « ناس » على وجه التعميم .. وأنت تلمح في كل المدائن الفاضلة السابقة - ما عدا موريش - أبنية جميلة ، ولكنها تخلو من الشخصية الجزئية ، وترى حقولا منسقة كاملة ، وجماعات الناس تروح وتغدو في صحة موفورة وسعادة وثياب نظيفة جميلة ، دون أن يكون هنالك تمييز بين أشخاصهم .

وأنا أشك في أن أحدا يود أن يكون فردا في جمهورية افلاطون. على الرغم مما بها من حسنات ومزايا .. وأشك في أن يطبق شخص البقاء شهرا واحدا بين الفضيلة الخالصة التي رسمها « مور » في أرضه المثلى .. ان الحياة الشخصية في لبها عبارة عن صراع متصل مفيد، ولست أرى غاية لليوتوبيا سوى أن تصلح هذا الصراع

واليوتوبيا الحديثة لم يعد يكفيها من رقعة الأرض أقل من كوكب بأسره ، فقد انقضى الزمن الذى كان يكفى للدولة المثلى واد منعزل أو جزيرة موحشة ، فالتفكير الحديث لا يسيغ العزلة للدولة ، والاختراع الحديث يعمل مسرعا على ربط أطراف الأرض بعضها ببعض ، ولن تستطيع دولة أن تعتزل فى واد أو فى جزيرة خشية الأعداء الغزاة ، لأن الطائرات لا تعجز عن أن تهبط حيث شاءت ، ولا تعرف عزلة تعز عليها .. فالدولة التى تقوى اليوم على الاعتزال بنفسها يجب أن يكون لها من القدرة ما تستطيع به أن تحكم العالم ، واذن فيجب أن تكون الدولة المثلى عالمية تشمل الأرض بأسرها .. فلسنا نستطيع فى هذا العصر أن نقيم اليوتوبيا فى أواسط افريقيا أو فى جنوبى أمريكا أو حول القطب ، بل لابد لنا من كوكب بأسره ..

سنختار اذن لدولتنا المثلى كوكبا يشبه هذا الكوكب الأرضى الذى نعيش على سطحه ، بما فيه من قارات وجزائر ومحيطات وبحار .. سيبلغ الشبه بينه وبين الأرض حدا بعيدا بحيث لو ذهب إليه عالم نباتى لما عثر عليه أن يجد كل صنوف النبات التى عهدا فوق هذه الأرض ..

وذلك ما حدث .. فقد كنت بصحبة صديق عالم بالنبات عند جبال الالب ، فانتقلنا فى مثل لمح البصر الى كوكب جديد يشبه أرضنا شبيها تاما ، بحيث لم نلاحظ تغيرا فى الموقف ، فلم تنقص سحابة من الفضاء ولم تغب شجرة أو صخرة مما كان على مقربة منا على الأرض .. ومع ذلك فلم نلبث أن أخذنا فى الشعور بوجوه الخلاف شعورا قويا غامضا ، وذلك حين شهدنا

رجلا يرتدى ثيابا عجيبة ويتكلم لغة لم نألفها . وسرعان ما لاحظ صديقي ان الدب الاكبر لا يظهر في السماء ، وهننا أدركنا على الفور ان الارض لم تتغير ، ولكننا نحن الذين هبطنا الى أعماق المكان فأصابنا التغير

وأول ما علمناه ان ذلك الكوكب تسوده لغة واحدة يفهمها كل فرد من أفرادها ، وذلك لأنهم تبينوا ان اختلاف اللغة حائل لعين ممقوت يبعث النفوس على التنافر - « فآنا يا صديقي ان كنت أراك كالاصم اليكم ، كنت عدوك اللدود » . واللغة علمية واضحة لا غموض فيها ، تبلغ من الوضوح مبلغ القوانين الرياضية ، فتصريف الأفعال مطرد لا شذوذ فيه وكل كلمة تتميز عن غيرها في المعنى والهجاء وهذا وحده دليل كاف على ان الأساس العقلي لبنى الانسان قد أصلح ، وان قواعد المنطق ونظم العدد والقياس قد أعدت اعدادا سالحا . واللغة مؤلفة من مجموعة لغات كما تتألف الانجليزية من اللغات الانجلو سكسندية والنورماندية واللاتينية . اننا لا نريد ان تحيا لغة وتموت أخرى ، بل نحب ان تندمج اللغات كلها في لغة واحدة حية قوية .

وأذكر ان أول ما أردنا ان نطالب به حين هبطنا كوكب اليوتوبيا الحديثة هو حرينا الشخصية . . ان المدن الفاضلة القديمة لم تد نحو الغرب الا حيا ضئيلا يكاد ينعدم ، ولكن العصر الحديث قد خلق فكرة التسامح ، واليوتوبيا الحديثة العالمية انما تركز على الأفكار الحديثة .

فالحرية الفردية فكرة ازدادت أهمية ، وما زالت تنمو كلما تطور الفكر الحديث . . أما كتاب المدائن الفاضلة القديمة فقد اعتبروا الحرية شيئا تافها ،

وظنوا ان الفضيلة والسعادة لا ترتبطان بالحرية ، وانهما
اكثر اهمية منها . لكن الراى الحديث يتمسك بالنزعة
الفردية ، ولذا فهو يتشبث بحرية الافراد ويزيد من
قيمتها ، ولعلنا مدركون عصرا تكون فيه الحرية هى لب
الحياة ولا حياة بغيرها ، او ان شئت فقل ان الحرية
هى الحياة ، وان الجماد الميت الذى لا اختيار له هو
وحده الذى يعيش فى طاعة مطلقة للقوانين . . ان الحرية
الفردية من وجهة النظر الحديثة هى انتصار الوجود
على العدم ، هى انتصار الوجود انتصارا ذاتيا ، كما ان
التناسل والخلق انتصاره الموضوعى ، ولكن الانسان
حيوان اجتماعى ، فلا ينبغى اذن ان تنال ارادته من
الحرية حدا مطلقا من كل قيد ، لان الارادة الحرة
الخالصة لا تتوافر الا لطاغية يصدع العالم كله بأمره ،
وعندئذ تكون الارادة معناها التنفيذ . . اما ما عدا ذلك
من صنوف الحرية فمعناه التوفيق بين ارادتنا وارادات
من نعيش معهم فى مجتمع واحد . فابناء الدولة المنظمة
يعلم كل منهم ماذا يجب ان يؤديه لنفسه وللناس ،
وماذا ينبغى للناس ان يعملوه له ، اعنى ان كل فرد
يحد تصرف الآخرين بحقوقه كما يحدونه بحقوقهم ،
وبما يمس سعادة المجتمع فى مجموعه .

وقد ينكر غلاة المذهب الفردى حدود الحق والواجب
ولكنهم مخطئون . فالمنع قد يزيد من مجموع الحرية
والمنح قد ينقص منها . فلا يتحتم - كما يذهب متطرفو
المذهب الفردى - ان تزداد حرية الانسان كلما قل
القانون المفروض ، وان تنقل قيوده . كلما كثرت مواد
القانون . فالاشتراكية او الشيوعية - وهما قائمتان
على مجموعة منظمة من القوانين - ليس حتما ان تؤدى
الواحدة منهما الى الاستعباد والرق . وكذلك الفوضى

الناشئة من محو القانون ليس فيها من الحرية شيء .
فانظر مثلا كم تكسب من الحرية حين يحرم علينا
القانون أن نزهق نفوس الآخرين ! فأنت تستطيع أن
تجوس خلال العالم كله لا يثقلك سلاح ولا يفزعك
خوف ، أعنى أنك حر من المخاوف والمخاطر ودواعي
الحدر .

فرجاء العالم في اليوتوبيا الحديثة أن تمحو الدولة
كل ما ليس يلزمنا من ضروب الحرية ، إذ الاسراف
في منح الحرية مضيع للحرية . فواجب الدولة ألا تجيز
حرية واحدة أكثر مما ينبغى ، وذلك يتيح للناس أقصى
حدود الحرية العامة .

وهناك وسيلتان للحد من الحرية : النهى : « يجب
ألا تعمل كذا » والامر : « يجب أن تعمل كذا » .
وثمة ضرب من النهى يصاغ في صورة الامر الشرطى :
« اذا عملت كذا وكذا فيجب كذلك أن تعمل كذا » .
مثال ذلك : « اذا نقلت قوما عبر البحر فيجب أن
تحملهم في مركب متين » . فالنهى معناه أن تنتقص
من حرية الانسان المطلقة جزءا ، ثم يبقى له ما عدا
ذلك مجال فسيح من الاختيار لاحد له ، فهو لا يزال
حرا يسبح في محيط الحياة كيف شاء ، لأنك لم تأخذ
منه سوى حفنة من ماء ! أما الامر فهو معول يهدم
الحرية ويدكها دكا . ولذا فسنعتمد في اليوتوبيا الحديثة
الى النهى دون الامر ، وان اضطررنا الى الامر في بعض
الحالات ، فذلك نادر لا محيص لنا عنه .

وما هي ضروب الحرمان التى نفرضها ؟ أولا :
لايجوز أن تكون للفرد حرية القتل والتهديد ، وكذلك
لاينبغى لنا أن نمس شيئا ليس لنا ، فقد يكون ملكا

لغيرنا أو ملكا للدولة ، حتى نعلم فكرة اليوتوبيا عن الملكية .. ولنا حرية مطلقة في الذهاب الى حيث شاءت نفوسنا ، وليس ذلك باليسير . فحرية الحركة من أجل نعم الحياة : اعنى أن يكون للفرد حق الذهاب الى حيث تدفعه رغبته ، وأن يرتاد الأرض من أقصاها الى أقصاها ليرى ما بها .. ان الدولة مهما بسطت كفها في منح الحرية لأفرادها وفي تهيئة الرفاهية والامن والنظام ، فلن يشعروا بالسعادة اذا حرمتهم نعمة الحركة . للانسان المتمدين رغبة في حرية الحركة حيث شاء ، ورغبة أخرى في أن يكون له مكان خاص به يحرم على غيره أن يعتدى عليه ، وعلينا أن نرسم الحد الفاصل بين هذين .. ان رغبة الملكية الخاصة المطلقة التي لا يتدارك فيها أحد سواك ليست قوية ملحة في الانسان . ففي الكثرة الغالبة من أفراد البشر تبلغ غريزة الاجتماع من القوة حدا تصبح معه العزلة مصدر ألم شديد ، الا ان كانت عزلة مؤقتة قصيرة الامد . ان الانسان بطبيعته لا يريد أن يختص لنفسه بتيء سوى أفكاره التي تضطرب في رأسه ، وهو يؤثر أن يلقي العذاب مع الناس على أن ينفرد وينعزل . ولكن هناك صنفا من الناس يستشعر اللذة في الوحدة والعزلة ، هناك من الناس من لا ينام نوما هادئا أو يفكر تفكيرا مثمرا ، أو يقدر جمال الأشياء الا وهو معتزل ، ومن أجل هؤلاء نفر يجب أن نرسم الحدود التي تحسد من حرية الحركة . وان العالم لتسوده فكرة أن يكون للفرد مكان خاص به ، لا ليعتزل فيه أن أراد فحسب ، بل ليضم اليه فيه من يشاء من الرفاق .

كان المجتمع المثالي فيما مضى ذا عقيدة واحدة يؤمن بها الجميع ، وعادات واحدة وأعياد مشتركة وأخلاق

لغيتها عند الأفراد جميعاً ، وثياب لا تختلف في فرد عنها
في فرد آخر من طبقته . فكل الناس يحبون ويعبدون
ويموتون على نمط واحد . . نعم كان الاتجاه الطبيعي
الذي يغلب على الشعوب ، أبيضها وأسسودها على
السواء ، هو ميل مطبوع نحو تشابه الافراد والتوحيد
بينهم ، وهو ميل يسعى التعليم الى محوه وهدمه . .
كان الفرد فيما سلف اذا شذ في لباسه او طعامه او
سلوكه بصفة عامة كرهه المجتمع ونبذه غير ان طبيعة
الحياة لم تبخل على الانسانية عصرا بعد عصر بالعقول
الجريئة المبدعة المنشئة التي تنزع بأصحابها نحو
الخروج على ما تواضع عليه المجتمع ، ولولا شذوذ
هؤلاء لما تقدم البشر خطوة واحدة نحو الكمال . .
اما اليوم فقد أضحى التجديد والابتكار والاصالة في
الفكر والتصرف أيسر جدا مما كانت في العهود الغابرة ،
وذلك بفضل تطور الآلات وكشف المواد الجديدة وظهور
نظم اجتماعية جديدة . ولذا ترى التقاليد في كل مكان
تتقوض دعائمها ، والاستمسك بالآراء والعقائد القديمة
تندك قوائمها ، ولكن لم يملأ مكانها حتى اليوم تسامح
يشمل أجزاء العالم كله ، ولم يحل محلها اعتراف صريح
يجيز للأفراد أن يتباينوا في التصرف والتفكير ، ولم
تظفر الانسانية بعد بسعة الفكر وبعد النظر . . أما أهل
اليوتوبيا الحديثة فأيسر عليهم من سكان هذه الارض
أن يأكلوا في الملاء ، وأن يستريحوا ويستمتعوا ويعملوا
علنا في غير حياء ولا خجل . . وأحسب مطالبة الناس
على هذه الارض أن يكون للفرد مكان خاص به يفعل
بين جدرانها ما يشاء ، خطوة انتقال بين مرحلتين من
العلانية ، علانية في التصرف كانت تسود في الماضي
وكانت ترجع الى ما بين الافراد من تجانس ، وعلانية

ستقوم قوائمها في المستقبل على ذكاء الأفراد وخس
تربيتهم وتنشبتهم .. ومع هذا الاتجاه الجديد ،
ستحتفظ يوتوبيا الحديثة بحق الافراد في خصوصية
الدار .

ولن تقتصر حرية الحركة في اليوتوبيا على اطلاق
سراح المشاة يجوبون حيث يشاءون ، بل ستشمل
أرجاء العالم بأسره فسيكون العالم أمة واحدة ، تتكلم
لغة واحدة ، وهذا معناه ان يأخذ الناس في الرحلة
والسفر من طرف الى طرف على نحو من الكثرة
والسرعة لم يعهد له العالم مثيلا من قبل .. وقد دلتنا
التجارب في هذه الارض الى انه اذا ما ارتفعت القيود
الاقتصادية والسياسية عن احدى طبقات المجتمع ،
أخذت على الفور تتأهب للرحلة والسفر في بلاد الارض
قاصيها ودانيها ، وأنت اذا بحثت في انجلترا مثلا
ألفيت الطبقة التي يبلغ دخلها خمسمائة جنيه كل عام
قد سافر أفرادها كلهم خارج البلاد ، ويندر جدا أن
تجد بينها واحدا لازم أرض الوطن طوال حياته ..
وفي اليوتوبيا الحديثة سيكون السفر جزءا من صميم
الحياة ، لا مجرد ترف يستمتع به الاغنياء وحدهم .
لابد أن تهيأ الفرصة لكل انسان كائنا من كان ليرتحل
في مختلف البلاد فيرى صنوفا لم يعهدها من الاجواء
والمناظر والوجوه والمنازل والطعوم ، وألوانا لم يألها
من الشجر والنبات والزهر والحيوان ، ويصعد الجبال
الشامخة ، ويحس زمهرير الليل في أقصى الشمال ،
وهجير الشمس في المناطق الحارة ، ويسير بحذاء الانهار
الكبيرة ، ويتبذوق العزلة في مهجور الصحراء ،
والوحشة في الغابات ، ويعبر المحيطات والبحار ..
سيفتح العالم في يوتوبيا الحديثة أبوابه للجميع ،

وسيهيب الفرصة للجميع، وينشر الأمن في ربوع الأرض
ليطمئن المسافرين ويستألف بلدان العالم كلها غدو
الراجلين ورواحهم ، فأينما حظ المسافر رحاله وجسد
وسائل راحته .. نعم ، سيصبح الجزء الأكبر من سطح
الأرض في مقدور كل إنسان أن يراه من حيث سهولة
الانتقال ورخص الأجور .. فإذا منح الإنسان حرية
السفر دون أن تقوم في وجهه حوائل اللفة والمال
والعادات والقانون ، فما أحسبه مكتفيا بمكان ضيق
من الأرض يحصر نفسه فيه حتى يموت .. وإن هذا
التزاحم الكثيف في بعض جهات العالم لدليل ناهض
على العقبات التي تصد الناس عن السفر ، وأغلب الظن
أن الإنسان أخذ اليوم في طور جديد من حياته .. هو
طور السفر .

ووسائل السفر عند أهل يوتوبيا متعددة ، ولست
تجد بينها هذا القطار بدخانه الخانق ، فقد امتدت في
أرجاء يوتوبيا شبكة من الخطوط، كأنها نسيج العنكبوت ،
فتراها تخترق الجبال وتسير تحت البحار بسرعة
تتراوح بين مائتي ميل في الساعة وثلاثمائة ، وهذا
معناه محو الشقة التي تباعد بين البلاد . والقطر هناك
ممتعة مريحة تقرأ فيها ، وتلعب ، وتنام ، فلا تحس
شيئا من عناء السفر .. وقد حرص أهل يوتوبيا على
أن يبقى الحصان في السهول ليستمتع من أراء الركوب ،
وأن تظل الجمال في الصحراء ، والفيلة في بلاد الشرق
الاقصى ، والبغال على قمم الجبال ، ولكنهم فيما عدا
ذلك جعلوا وسائل النقل كلها آلية سريعة .

وهذا التيسير في السفر سيجعل من أهل يوتوبيا
أقواما مهاجرين ، لا تنفك الجماعة منهم أن تنتقل من
بلدها إلى بلد آخر تستقر فيه إذا طاب لها ذلك ..

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها كانت حريصة على ان تثبت في مكان معين ، أما يوتوبيا الحديثة فستحل هذه القيود . اننا نرى بوادر الانتقال في حياة هذا العصر ، فلم يعد عجيبا أن ترى الرجل ينتقل ثمانين ميلا من داره الى مكان عمله ، أو يسافر خمسين ميلا ليلعب الجولف في وقت الفراغ . وبات مألوفا عند الناس جميعا أن ينتقل الرجل في الصيف الى مصيف بعيد . . أخذت هذه البوادر في الظهور ، ولا يمنع زيادتها زيادة سريعة الا سوء المواصلات ، وكل رقى وتحسين فيها سيعمل حتما على زيادة انفصال الانسان عن المكان ، ان اهل يوتوبيا يأبون أن يستعبدوا أنفسهم لبقعة من الارض ، ولا يرضى أحد منهم أن يستقر في مكان واحد ليؤسس أسرة الا بعد أن يرى ما يستطيع أن يراه من بلاد العالم

اننا اذا حللنا هذه القيود المكانية التي تنقض ظهور الناس بعثها الثقيل ، نشأ توزيع جديد لعوامل الحياة ، فأسباب الحياة تزدحم اليوم حول مصادر الثروة ، كالمناجم ، والمزارع ، وما الى ذلك . وأما في يوتوبيا الحديثة فسيكون مكان العمل غير مكان السكن والاقامة ، اذا كان الاول لا تتوافر فيه وسائل النعيم والصحة .

فاذا ما أقبل الصيف ارتحلت الاسر الى ذرى الجبال ومعهم المدارس ، والأطباء ، ومن الى هؤلاء ، ثم يكرون راجعين في أوائل الخريف . . ويعمل أهل يوتوبيا الحديثة على اطالة مدة التعليم للأطفال ، وتبذل الدولة جهدا في أن تقلل من عدد الاطفال الذين ينشأون في بلد خار أو في وسط سييء .

وقد وجدت الحب في أرض يوتوبيا مطلقا حرا لا تغله القيود ، فلكل رجل أو امرأة أن يحب من شاء .

والجامعات مراكز نشيطة بالتجارب العلمية ، حتى ليخيل اليك ان « بيت سليمان » الذى اقترحه سيكون فى اطلنطس الجديدة قد خرج الى حيز الوجود . ولا تكاد تصل احدى الجامعات الى حقيقة علمية حتى تبعث بها الى انحاء الارض طرا فى مثل الملح بالبصر ، وبهذا يكون المشتغلون بفرع من العلم كأنهم أعضاء من جماعة واحدة متضامنة ، ولذا ترى الابحاث العلمية فى يوتوبيا الحديثة تسير بسرعة النسر اذا قيست الى تخطيط الاعمى الذى تسير به البحوث على هذه الارض .

والقانون فى يوتوبيا يقف موقفا معتدلا معقولا فى التوفيق بين رغبات الاشخاص وخير المجموع . . . فهم فى مشكلة الخمر مثلا يتبعون نظاما كالذى يقوم بيننا على الارض ، فتقيد الدولة الامكنة التى يصح فيها شرب الخمر ، وتحمى الاطفال منها ، وتفرض عقوبة على الاغراء بها . ولكن الناس هنالك يفهمون وسائل صيانة الصحة ويعنون بها أكثر مما نفعل فى هذه الدنيا . . وأحسب أن نصف الخمر يشربها الناس هنا لتخفيف عبء الحياة الثقيل ، ولكن هذا اللون من الحياة المقوتة لا يعرف لها أهل يوتوبيا معنى ولا يرون لها أثرا . فهم يأكلون ويشربون فى اعتدال . وانى لأوثر أن يبقى الناس على بعض الخمر الجيدة مع تقديرى واحترامى لمن أمسك نفسه عن الشراب امساكا قاطعا . اقول هذا لانى اؤمن فى يقين انى اسان معرض للخطأ ، وأحذر من شرب القهوة لأنها تمزق المخ وتتلف الكليتين ، ومن شرب الشاي لأنه يدبغ المعدة ويجعل منها شيئا يقرب من جلود القرب وخير منهما أن نشرب قليلا من جيد الخمر .

ان يوتوبيا بكل ما أهلها من فضيلة وتربية عالية وحرية ووحدة عالمية ولغة مشتركة ورحلة دائمة وتحطيم للحوائل الاقتصادية ستظل حلما لا يتحقق حتى تستطيع أن تكفى نفسها بنفسها من الناحية الاقتصادية . فالحرية الممنوحة للأفراد لا يجوز أن يكون بينها حرية أن يظل الانسان بغير عمل يؤديه . فكل نظام وكل أمن لا بد له من عماد قوى يرتكز عليه ، وهو أن يوقن الناس بأن العمل سيجد من يؤديه .. فكيف يتم العمل على ذلك الكوكب ؟

أول ما نشير اليه في الحياة الاقتصادية في مثل تلك الدولة التي اتسعت حتى شملت كوكبا بأسره ، والتي دأب أهلها على الارتحال المتصل ، انه لا بد من وجود شيء يدل على توزيع الخدمات والسلع بين الناس ، اعني انه لا بد من نقود التعامل .. ولقد حدث فعلا اني وصديقي عالم النبات قد عثرنا أول هبوطنا في كوكب اليوتوبيا على قطعة من الذهب من نقود تلك البلاد ، رجحنا انها كافية لحياتنا يوما حتى نجد في تلك الارض مستقرنا .. لقد كانت المدائن الفاضلة القديمة تنفر من الذهب ، حتى زعم « توماس مور » انه علامة الضعة والتدهور ، وكذلك لم يرض افلاطون أن يدخل الذهب في نظام جمهوريته ، ولكنه عاد فأجاز استعمال النقود حين عدل من آراء الجمهورية في كتاب « النواميس » . ان هؤلاء الكتاب الذين تمنوا للذهب أن يختفى من وجه الوجود ، قد سلكوا سبيلا ضالة تعزى الى سرعة القضاء في مشكلة معقدة تتطلب دقة التفكير وعمقه .. ان الذهب عنصر لا غنى للحياة المتسقة المستقيمة عنه . انهم ازدروا الذهب ومحوه من مجتمعهم الذي صوروه ، كأن الذهب سبب للضعة والمهانة وليس أداة في يد

الانسان يوجهها حيث شاء . ان الذهب لا بأس به ولا
سوء ، ولأن تمحوه من وجه الحياة وتصب عليه الزرارة
والفضب ، كأن تعاقب الخنجر لأن مجرما اتخذه أداة
يزهق بها الارواح ! ! لا ، ان المال أداة صالحة للحياة
الطيبة لو استخدم استخداما صحيحا ، بل هو أداة
ضرورية ليس عنها محيىص فى الحياة المتمدينة ، وان
يكن نظاما معقدا فليس فى ذلك بأس ، لأنه كائن كسائر
الكائنات أخذ ينمو ويتعد كلما نما . . فليست أستطيع
أن أتصور حياة يصح أن يطلق عليها اسم المدنية اذا لم
تقم على دعامة المال ، فهو عصارة الحياة فى جسم
المجتمع ، أعنى انه يوزع الغذاء ، ويمكن المجتمع من
النمو والتمثيل والحركة والنشاط . فالمال فى لبه معناه
التوثيق بين حرية الفرد فى التصرف مع خضوعه لعلاقته
الاجتماعية بسائر الاعضاء ، وماذا غير المال يستطيع
أن يتيح للفرد هذا القدر من الحرية الشخصية ويدفعه
فى الوقت نفسه الى النمو والنشاط .

لا بد اذن من المال فى الدولة المثلى التى نصورها ،
والذهب أفضل المعادن لذلك ، وان يكن أقل مما نرجوه
كمثل أعلى لأنه معرض للتدهور فى قيمته اذا ما استكشف
له مصدر جديد ، وزيادة الذهب أو الفضة يؤدى الى
ارتجاج عنيف فى الصلة القائمة بين الدائن والمدين . .
وانى الأتمنى أن تكون وحدات الجهود الجسمانى
مقياسا لقيم الاشياء ، وعنده ان المثل الأعلى للعملة هو
أن تصدر السلطة القائمة أوراقا مالية تمثل هذه
الوحدات ، بحيث تكون قيمة الاوراق واحدة فى أرجاء
العالم ، لأن الرحلة من مكان الى مكان ستزداد كثرة
وسرعة .

ان فئة قليلة جدا من علماء الاقتصاد في أرضنا هي التي استطاعت أن تخلص نفسها من شوائب الوطنية والسياسة أما في اليوتوبيا فلن نرى شيئا كهذا ، لأن الدولة عالمية لا تعرف حدودا لأوطان ، ولا تفهم معنى للصادرات والواردات ، نعم لن تقوم الشئون الاقتصادية في اليوتوبيا على قاعدة نفسية باطلة ، ولكنها ستكون أشبه بعلم الطبيعة في دقته .. ولعل أم المشاكل الاقتصادية في اليوتوبيا هي كيف نوزع النشاط المادي وكيف نطبقه ، ذلك النشاط الذي لا يفتأ بتزايد بفضل تقدم العلم السريع . ان النظام النقدي الذي أقمناه على أساس مقدار الذهب الموجود ، وهو مقدار ضئيل ، والذي سار العمل وفقه حتى اليوم ، نظام فاسد لأنه معرض للتغيرات الكثيرة ، وهو لا يمهّد الطريق الى سعادة الناس . أما في يوتوبيا فيتخذون معيارا للتقويم غير هذا .

بل ان يوتوبيا لا تعرف شيئا اسمه «علم الاقتصاد» فكثير مما نعبده مسائل اقتصادية هو في حقيقة الامر من «علم النفس» عند أهل يوتوبيا . فعلم النفس عندهم قسمان : علم نفس الافراد ، وهو عبارة عن دراسة العقل .. وعلم نفس العلاقات التي تربط الافراد ، وهو دراسة شاملة لعلاقة الناس بعضهم ببعض في كل ما يمكن أن يقع بينهم من صلات ، وان شئت قسم هذا القسم : علم اجتماع الناس : اجتماع افراد الاسرة ، والجيران ، وأعضاء الشركات والجمعيات على اختلاف ألوانها ، والحكومة والدولة .. واذن فالإقتصاد باعتباره علاقة تربط الافراد بعضهم ببعض، جزء من هذا العلم العام - علم الاجتماع .. وهم يقسمون علم الاقتصاد نصفين : نصف طبيعي يبحث في

كيف تستمد الثروة من الطبيعة ، ونصف يبحث في تقسيم العمل وتنظيم المجتمع بحيث يظفر الناس بثمرات الإنتاج في جو من الحرية الشخصية .

وان ما ندعو اليه من وجوب التخلص من قيود التقاليد وتحرر الافراد من أغلالها ، يأخذ به أهل يوتبيا ، وهو يعينهم جدا في دراستهم الاقتصادية ، اذ يحللون ويبحثون في كل نظام مهما تكن درجة رسوخه في نفوس الناس ، ليروا ان كان صالحا حقا او لم يكن . . .
أما نحن في هذه الأرض فبحوثنا الاقتصادية ضرب من التخطيط لأنها مرتكزة على طائفة من الآراء والتقاليد لم نضعها موضع الدرس والتحليل ، فلا بد من ثورة على علم الاقتصاد كما هو اليوم ، لأنه كتلة من الضباب الكثيف يسبح في واد فلا تدري من أين جاءت ولا الى أين تسير .

كانت المدائن الفاضلة القديمة دولا صغيرة ، لا فرق فيها بين الاسرة والسلطة المحلية والحكومة العامة ، حتى لقد ذهب افلاطون بالشيوعية الى أقصى حدودها - الى حد الشيوعية بين الأزواج ! وانكر « مور » الملكية الخاصة وذهب الى أن تكون السلع مشاعا للجميع ، وذلك بعينه مادعا اليه «مورس» في « الأرض التي لا وجود لها » أما هذه « اليوتوبيا » التي نكتبها في مستهل القرن العشرين (١) فلا بد أن تفيد كثيرا من آراء الحزب الفردي من جهة أخرى بعد أن دام بين الفريقين تناظر في الرأي دام قرنا كاملا . فقد جعل النقاش بين الجانبين يعدل من تطرف الحزبين حتى اقتربا وأصبح متعلدرا أن نختار منهما مذهبنا لدولتنا

(١) كتب ولز هذه اليوتوبيا سنة ١٩٠٥ .

المثلى التى نصورها ، ويحسن أن نأخذ من كل منهما
بما يصلح . . أن الفردية والشيوعية كليهما تجعل من
الناس عبيدا أرقاء . فالأولى تجعلنا عبيدا للأغنياء ،
والثانية تجعلنا عبيدا للدولة ، وليس من شأنى هنا
أن أقرر أين يقع الصواب ، ولكنى أقول أنه إذا ما
استقرت سياستنا واقتصادنا على أساس اشتراكى كنا
أقرب الى ما يدعو اليه المذهب الفردى . . أن الدولة
المثلى يجب أن تدفع بنفسها فى طريق التقدم ولا تثبت
على حال آسنة راكدة ، فلا يجوز أن تقصر مجهودها
على توفير الطعام والثياب ، والأمن والصحة ، وما الى
ذلك ، بل يجب أيضا أن نمهد الطريق للابتكار والابداع،
وانى الأزعم أن العالم لم يخلق الا من أجل غاية واحدة :
هى الابتكار ، ووسيلته الى ذلك هى الابتكار نفسه ،
فالخلق والابداع وسيلة وغاية فى أن معا . والمذهب
الفردى هو الذى يهين الجو الصالح للابتكار المنشود ،
أعنى أن كل رجل وامرأة يفسح أمامه أو أمامها الطريق
لتقرير فرديته وشخصيته فيحطم التقليد الشائع ،
ويعتدى على العرف الجارى ، ويجرى تجاربه الجديدة
ليوجه قوة الحياة فى مجرى جديد . أما أن كان السلطان
كله للدولة فإنه يستحيل عليها أن تجرى التجارب
المثمرة الفعالة ، وأن تجدد وتقلب الأوضاع وتثور على
العرف القائم بما فيه صلاح الانسانية ، نقول أنه
يستحيل على الدولة أن تقوم بهذا لأنها تمثل مجموعة
الشعب ، والشعب فى مجموعه أوساط لا نوابغ ، انما
النبوغ ينحصر فى أفراد قلائل . . الدولة بعبارة أخرى
تمثل النوع كله ، أما الفرد فيمثل نفسه وشخصيته ،
وسنة الطبيعة هى أن يخرج الفرد - ان شاء واستطاع
- على حياة النوع وينادى بأسلوب جديد فى الحياة ،

فاما أن يفشل في أسلوبه هذا فيفنى واما أن يوفق
تفترض نفسه على الاجيال المقبلة جميعا ، بما وصل
اليه من النتائج العقلية والمادية والخلقية .. ان النوع
من وجهة النظر البيولوجية عبارة عن مجموعة تجارب
الافراد الناجحين في العصور المتتابعة على مر الدهور ،
والدولة العالمية في يوتوبيا الحديثة . ستبنى شسئونها
الاقتصادية على تجارب الافراد كذلك ، فالافراد يقومون
بما يشاءون من مشروعات ، فان أصابهم الفشل لم يأبه
لهم أحد وان ظفروا بالتوفيق أضافوا تجربتهم الجديدة
الى جسم الدولة العالمية الخالد .

الدولة العالمية المثلى هي مالكة الارض ، وهي التي
تنيب عنها حكومات محلية وهيئات بلدية في ادارة أجزاء
الارض . فتقبض كل هيئة من هذه الهيئات الفرعية
على كل مصادر النشاط في يدها لتستثمرها بطريق
مباشر أو غير مباشر ، وبذلك يكون المجهود البشرى
وثمرات الطبيعة من فحم وكهرباء ورياح وماء خاضعا
كله لسلطانها المطلق ، تصرفه حيث شاءت وتوزعه بين
الافراد كما تريد مهتدية بالصالح العام . وعندئذ فقط
تستطيع الدولة أن تكفل النظام ، والامن ، والعدل ،
وأن تهيب أضلع الطرق . وأرخص وسائل المواصلات
وأسرعها وأن توزع العمل وتراقب المنتجات الطبيعية ،
وأن تضمن جيلا جديدا صحيح الاجساد . وعندئذ
فقط تستطيع الدولة أن تفرض على الناس ما تريد هي
من مقاييس لقيم الاشياء ، وان تعاون الابحاث العلمية
وتكافئ المشروعات النافعة التي قد تتعرض للخسارة
لو تركت وشأنها ، وأن تأخذ بأيدي النقاد والمؤلفين
والناشرين اذا مست بهم الحاجة ، وأن تجمع المعلومات
المفيدة وتوزعها بين أبناء الشعب . ان الخدمات التي

ستؤديها الدولة لأفرادها ستكون كماء الفيث تمتصه الشمس من البحر ليعود دافقا على سلاسل الجبال الى البحر مرة أخرى ، فالشمس هنا هي الدولة ، والبحر هو الشعب والقطرات التي تمتصها هي ما تجبيه من مختلف الضرائب ، تجبيه لتعود فتصبه في البحر ماء عذبا نмира في جداول وأنهار تعمل عمل الافراد من أصحاب المشروعات ، فالدولة لم تقم الا من أجل الافراد والقانون لم يسن الا ليضمن الحريات ، والعالم كله لم ينشأ الا للتجربة التي تمهد سبيل الرقي والتقدم .. تلك هي الآراء الرئيسية التي تقوم عليها قوائم اليوتوبيا الحديثة .

ولكن اذا كانت الدولة مصدر ألوان النشاط كلها ، فكيف تكون ملكية الافراد ؟ .. ان الرجل بغير ملك يتصرف فيه كما يشاء هو رجل سلبت حريته ، ومدى ما يملك الانسان يحدد مدى ما يستمتع به من الحرية ، فلو نزعنا من الفرد ما يملكه ، لو نزعنا منه طعامه ومأواه ، ما وسعه الا أن يضرب في أرجاء الارض باحثا عن بديل لما سلب منه ، لأن الانسان يظل عبدا لحاجاته حتى يظفر بالاملاك التي تشبع فيه تلك الحاجات .. أما ان كان الانسان صاحب ملك ولو ضئيل ، اضحى على الفور جرا في بعض النواحي ، فتراه يستغنى عن العمل بعض الوقت ليستمتع بفراغه كما يريد ، ويجرب ألوانا مختلفة من العمل حتى يقع على ما يصادف في نفسه هوى ولذة .. وان زادت الاملاك فيقلب أن يفكر المالك على الفور في الرحلة الى أطراف الارض ، ويبني لنفسه الدور هنا وهناك ، وينشئ الحدائق ويؤسس الاعمال ويجري التجارب .. ان ظروف الحياة في العالم الإنساني تتيح لثروات الافراد زيادة سريعة تنتهي

بالضغط على حريات الآخرين ، فان اردنا للمشكلة
علاجاً ، كان من حيث الكم لا الكيف ، فنبقى على
الملكية ولكن نقيدها بقيود ، وليست المسألة مسألة
كيف كما يذهب بعض المفكرين ، أعني ان المشكلة لا تتطلب
قابلاً للأوضاع رأساً على عقب .

وهذا بعينه ما أخذت به « يوتوبيا » في بناء نظامها ،
فقد ضربتم حداً أقصى للحرية الفردية فلكل فرد
مطلق الحرية في ملكه الذي حصله بطرق مشروعة ،
أعني ما حصله بعمله ومهارته وبعد نظره وجرأته ، وكل
ما عمله الفرد يصبح من حقه أن يحتفظ به أو يبيعه
أو يبادل به شيئاً آخر .. وبذلك تصبح مشكلة : ماذا
بملك الفرد ، هي : ماذا يجوز للفرد أن يشتري في
الدولة المثلى ؟

أما الأشياء التي تتعلق بشخصية الفرد فله كل الحق
فيها وفي أن يورثها من يشاء .. وأما الأملاك الأخرى ،
كالمال مثلاً فالدولة تساهم فيه بنصيب الأسد ، لأن
الدولة هي المكلفة برعاية الأبناء بعد موت عائلهم وهي
التي ستعنى بالرجل في سن الشيخوخة ، ولذا ستسعى
الدولة ما أمكنها السعى إلى تشجيع الأفراد بكل
وسيلة ممكنة لينفقوا أموالهم الزائدة عن حاجتهم في
أعمال اقتصادية ، أو في أن يضيفوا إلى الحياة جمالاً
وسعادة وأملاً وثروة .

وأريد بهذا ان الملكية نوعان : ملكية شخصية
يكون الفرد حراً فيها ، وملكية غير شخصية تكاد
تكون من حق الدولة كلها .. فالفكر الحديث ينزع
نزوعاً قوياً نحو تحريم ملكية الأفراد للأرض وسائر
الأشياء الطبيعية ، ولذا ترى دولة اليوتوبيا الحديثة

تجعل هذه الاشياء ملكا للدولة وحدها ، قد تؤجرها للأفراد مدة لاينبغي أن تطول تحوطا لما عساه يحدث في الايام المقبلة .

وما دمننا بصدد الملكية فانا نسارع الى القول بأن ملكية الآباء الأبنائهم وزوجاتهم ستنتقل الى يد الدولة، وسنرجى الحديث في هذا حتى نبحث موضوع الزواج

اننا اذا استثنينا جانبا ضئيلا جدا من العمل كان يؤدي فيما مضى بقوة الماء والريح ، وجانباً آخر كانت تقوم به الماشية في حرث الارض ونقل المتاع ، أقول اذا استثنينا هذه المعونة الضئيلة وجدنا ان عضلات الرجال وحدها هي التي كانت تحفظ كيان الحياة في الدول القديمة ، فقد كان الناس فيما سلف يديرون دنياهم بأيديهم ، ولذا كان العمل الجسماني شرطاً ضرورياً للوجود الاجتماعي . . فلما أدرك الانسان مرحلة من الرقي يحرق فيها الفحم ويستخرج من جوف الارض صلبها وحديدتها ، تطورت المعرفة البشرية وتغيرت الظروف . فكثير جداً من نشاط الحياة اليوم يعتمد فيه على غير سواعد الانسان ، اذ نستمد من الفحم والوقود السائل والمفرقات والهواء والماء وكل الدلائل تشير الى زيادة مطردة في النشاط الآلي ، والى تحرر الانسان من ضرورة العمل الجسماني . ان الآلة ستغزو الحياة الى أقصى الحدود ، ولم تطرأ هذه الفكرة على عقول البشر الا في الثلاثة القرون الاخيرة . فلم يكن افلاطون - مثلاً - يفكر قط في ان الآلات سيكون لها الشأن الاعظم في التنظيم الاجتماعي ، لأنه لم ير في بيئته ما يوحي اليه بذلك . . انه لم يحلم بإمكان قيام دولة لا تعتمد في قوتها على سواعد البشر وعضلاتهم

ولكنه رأى حوله من الآراء السياسية والخلقية مقداراً كبيراً ألهم عقله واستحث خياله فيما يمكن أن يكون ، بل لا تزال آراؤه السياسية والخلقية من الخصوبة والفزارة بحيث تكفى لاشباع الخيال في عصرنا هذا ، أما فيما يمس الممكنات المادية فكلامه يميز الخيال ولا يستثيره.. بل أن يكون نفسه في «أطلنطس الجديدة» لم يتنبأ بكثير مما يمكن أن يطرأ على الحياة من تطور مادي .

/ وأغلب ظنى أن غذاء عقولنا تقيض غذاء العقل اليوناني القديم ، فأنسان اليوم يكاد لا يدهش من أى نظام آلى أو اقتصادى مهما بلغت غرابته عن المألوف ، ولكنه يدهش كل الدهش حين يسمع بالنظم الاجتماعية العجيبة التى قامت في عصر اليونان .. أننا لنعجب للنظام الاجتماعى في أسبرطة بقدر ما كان يعجب سقراط إذا وصفت له سيارة أو طائرة .

من أجل هذا بدأ افلاطون تقليداً تبعه فيه كتاب المدائن الفاضلة ، وهو أن تكون الدولة المثلى بغير آلات ولكن بشائر الحياة الآلية الجديدة أخذت تظهر عند يكون في «أطلنطس الجديدة» ثم زادت واشتدت في مؤلفى القرن التاسع عشر .. أما قبل ذلك فقد كان المفروض أن يكون بين الناس طبقة يناط بها العمل اليدوى الثقيل ، وهم من سماهم أرسطو بطبقة العبيد حين قسم المجتمع الى طبقاته ، أخذ افلاطون في جمهوريته بهذا رأى ، وكاد يقرر ذلك بكون ، ولم يسمع « مور » إلا أن يفكر في طبقة عبيد أيضاً تؤدي للمواطنين الأحرار العمل الشاق . ثم ذاعت دعوة أخرى هى أن يقوم الناس جميعاً بالعمل اليدوى ، على شرط

أن ينقلب الى لذة واستمتاع بعد أن كان شقاء وعذابا .
ولسكنا لا نرى ان وجهة الانسانية تشير الى شيء كهذا

لست أرى ان الانسان بطبعه يميل الى العمل ، ولا
أعتقد ان العمل نعمة من نعم الحياة كما يذهب أصحاب
هذا الرأي . بل ان أصحاب هذا المذهب أنفسهم
ليحجمون عن تصوير الجنة وحياة الراحة والخلود
مملوءة بالعمل . . فلا يكون العمل محببا الى النفس
متفقا مع الهوى الا ان كان مرانا عقليا أو جسديا أوحى
به الخيال أو أملت به طبيعة البدن ، وليس هذا في حقيقة
الامر من العمل في شيء ، وهو أدنى الى اللعب والسلوى ،
فالانتاج الفني حين يصدر فيه الفنان عن دافع نفسي
وحرية شخصية ، لا حين يجهد نفسه ليسر الآخرين ،
لا يصح أن يطلق عليه اسم العمل ، فما أبعد أن نجنى
البطاطس من حديقتك لترجى الفراغ في متعة لذية ،
وبين أن تجنيها من الحقل لتقيم أود الحياة . ان جوهر
العمل هو الاضطرار والارغام ، ووجوب تركيز الانتباه
في العمل الذي تؤديه ، جوهره انه يقضى على حرية
الانسان لا انه يتعب أو لا يتعب ، وبها نحن أولاء نرى
ظروف الحياة آخذة في التغير بفضل العلم الطبيعي ،
ولن يكون الانسان وحده مصدر النشاط وأداة العمل ،
اذ ستقوم بالعمل آلات صماء ، وبذلك تنمحي الفكرة
العتيقة البالية التي تحتم وجود طبقة عاملة بين طبقات
المجتمع .

تلك هي رسالة علم الطبيعة في الحياة . ولكن وا
أسفاه ! ان العلم خادم أمين لو وجد سييدا صالحا
يوجهه ويمسك بزمامه ! ولكن هذا الخادم الكفء
لا يرى اليوم وراءه الا سييدا لم يصب من التريسة الا

قدرا ضئيلا لا يمكنه من الارتفاع الى مستوى خاضمه !
ان العلم يهيىء للناس كثيرا من موارد الثروة وطرائق
الحياة الطيبة السعيدة ، ولكن الناس ابلد من أن
يستفيدوا بما يقدمه العلم . . أما فى اليوتوبيا الحديثة
فالأمر على خلاف ذلك ، الحياة كلها هناك قائمة على
العلم المادى ، وقد انمحت ضرورة قيام الناس أنفسهم
بالعمل الشاق ، وبذلك زال آخر سبب يبرر استعباد
الأفراد أو الطبقات ، ويجيز أن يعلو فرد فى المجتمع على
فرد آخر .

انه ليكفيك أن ترى الفرقة التى نزلت بها فى أرض
يوتوبيا لتعلم كيف قضى فى تنظيم المجتمع على ما يسمى
بالطبقة العاملة . فانت تضغط على زر هنا أو زر هناك
لتظفر بكل ما تريد من نظافة وغسل وتهوية واضاءة .

أما قبح الحياة مع الآلات فحدث خرافة لا يسيغه
العقل . أن كل شيء فى أرض يوتوبيا جميل جذاب ،
لأن القبح دليل النقص ، وأهل يوتوبيا قد اتقنوا كل
شيء صنعا . ان الآلة القبيحة معناها ان صانعها لم يبلغ
حدا بعيدا من الرقى فى صناعته ، وهو كلما أمعن فى
اصلاح فنه وتكرار عمله دنا ما عمله من الجمال المنشود

.. ان الحياة الآلية على أرضنا قبيحة لأننا نعيش فى
مجتمع قبيح ، مجتمع يقدم على السرقة والنهب والخداع
والشك . وانه لسبوء طالع للآلات ان تقوم فى هذا
الوسط المرذول وليس هو بالخطأ الذى تسأل عنه . .
أنا لو استمعنا الى من ينادون بالعودة الى السداجة
الطبيعية ، وأخذنا نحطم المصانع والآلات ، ورجعنا الى
الصناعات المنزلية والعمل اليدوى ورعى الفهم ، اظلت
لنا سرعة اليوم ، ولا نضيف الى حياتنا الا قذارة وتعبا

وقسادا ومرضا ، أريد أن قوُصانا العقلية والخلقية
ستنعكس في أى لون من الحياة اصطنعناه ، ولا اصلاح
الا بتنظيم هذه القوضى .

وقد ظفر أهل يوتوبيا من ذلك التنظيم العقلى
والخلقى بقسط موفور . فمهندس مركبات الترام مثلا
فنان بارع مثقف ، يحاول أن يبلغ بعمله ذروة البساطة
والجمال ، كما يحاول الكاتب المجيد أو الرسام القدير
أن يفعل في آيته الفنية التى يكون بصدد اخراجها .
وان الطبيعة كلها لتوحى لمن أراد أن يستمع لصوتها
بالجمال والبساطة ، تراهما في رشاقة النبات ودقة
الحيوان .

لنعد الى الطبيعة نستلهمها الوحي ، فننشر بين
الناس لواء الحرية خافقا كما تملئ الطبيعة في بساطتها،
وننظر الى الانسان كثمرة أنتجتها الطبيعة فلا نكبله بكل
هذه القيود القانونية التى يزسف فيها كلما أراد الحركة
.. ان صوت الطبيعة يصيح بنا ألا نجعل كل هذه
القوارق بين الانسان والانسان ، فما هكذا أرادت
بأبنائها . والطبيعة لا تعرف المرض ، ولكن الناس
احتموا منها في البيوت والملابس والعقاقير ، وانى الأثر
أن يموت الانسان موتا طبيعيا على أن يلفظ أنفاسه بين
أكداس القوارير ..

لا أمل في الاصلاح اذا لم يكن للعالم كله غرض واحد
يقصد اليه ويسعى لتحقيقه ، فتظهر للانسانية ارادة
واحدة تبطش بكل هذه الانقسامات التافهة التى ولدتها
الانانية الممقوتة .. ان أرض يوتوبيا لاتسير في حياتها ،
كما نفعل على هذه الارض ، بالمصادفات والقوضى ، بل
تنظم لنفسها مجهودا منسقا وخطة مدبرة ، ترعاها

حكومة رشيدة ونظام اقتصادى متزن .. أما هذا العالم الفاسد فالناس فيه يموتون فقرا وجوعا . ان ألوف الألوف تسلم أرواحها وهى تتضور من الفاقة والألم . ان أهل هذه الأرض لا يدخرون جهدا فى تحويل دنياهم الى جحيم يقاسون فى سعيه العذاب الأليم . هأنذا ترى الاطفال يولدون على صورة قدرة بشعة ، وينشأون فى غلظة وقسوة وجهل وعماء . وام الكوارث هى الحرب التى تلقى الفرع فى النفوس وتسيل الدماء أنهارا

كاد أصحاب المدائن الفاضلة القدامى أن ينكروا عنصر المنافسة بين الناس ، أما نحن فى هذه اليوتوبيا ، فلا يسعنا الا الاعتراف بهذا المبدأ ، الذى هو من الحياة بمثابة اللب والصميم . نعم ، قد نحاول أن ننظم هذه الفوضى الضاربة بأطنابها ، وأن نبث روحا انسانية فى الصراع القائم بين الافراد ، ولكن لابد مع ذلك أن نبقى على التنافس الذى يميز بين القادرين والعاجزين .

كان معظم المدائن الفاضلة القديمة يحتم أن تكون الأرض السعيدة المثلى بغير تاريخ . وأن يكون مواطنوها جميعا ذوى جمال ورشاقة وقوة فى العقل والخلق . ولكننا أعلننا منذ البداية اننا سنحصر أنفسنا فى حدود الممكن العقول ، فندخل الاصلاح على الحالة الراهنة بقدر المستطاع .. فماذا نحن فاعلون فى الشائئين والبله والمجانين والسكرارى والاشرار والقساسة والحمقى والاغبياء ؟ ان النوع البشرى لامندوحة له عن التصرف فى هؤلاء بما يضمن له السلامة والسعادة ، كما ينبغى أن يرفع ذوى الكفاءة الممتازة حتى يصعد بهم الى أسنى الذرا .

أما الطبيعة فسيبيلها الى ذلك أن تقتل الضعيف وتسحق العاجز ، وأداتها التي تتخذها للقتل والسحق هي أبنائها الأقوياء الأذكاء ! ولكن الانسان حيوان لا طبيعى ، فهو ابن الطبيعة الشائر عليها ، وهو يزداد على مر الدهور ثورة على أمه التي أنشأته . فسيأخذ الانسان نفسه فى اليوتوبيا الحديثة بتغيير القانون القديم الذى لم يكن يسمح للعاجزين الفاشلين أن يعانون ويتخبطوا ، خشية أن يزداد نسلهم ، أما القانون الجديد فيحرص على ألا يزداد نسل العاجزين خشية أن يعانون ما يعانونه فى الحياة من آلام .

ان موارد العالم المادية اذا نظمت تنظيما حكيما كانت كافية لسد حاجات الاحياء جميعا . واذا كان من الممكن أن يعيش كل كائن بشرى عيشة مرضية فى بدنه وعقله ، فلماذا لا يفعل ؟ ! حتم علينا اذن أن نوفر الهناء لكل فرد ، على أن نبقى على التنافس بين الافراد لنميز الطيب من الخبيث ، فنرفع القادريين ونسمح لهم بالسيادة والتكاثر . واعتقد أن حاجة الانسان الى المنافسة والنجاح والفشل لا تقل ضرورة عن حاجته فى حياته الى زمان ومكان !

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نحصر حدود الفشل والاختفاق . ففي العالم الارضى قد بلغ التنافس حد القتال الدنىء على الطعام واللباس والمأوى . فان ظننت ان قليلين هم الذين يموتون جوعا وعريا ، فقد غاب عنك ان الطبقات الدنيا تلبس وتأكل وتسكن فى صورة زرية تعافها نفس الكريم ، وذلك معناه أنهم يموتون عريا وجوعا موتا تدريجيا مجزءا . . أما فى اليوتوبيا الحديثة فلن ترى شيئا كهذا ، لأن أساسا من أهم أسسها هو أن

يكون لكل انسان حق اللبس والاكل والسكن على نحو معقول . . . ولن تدخر اليوتوبيا وسعا في هدم المنازل غير الصالحة واعادة بنائها ، وستعنى بالمرضى من ابنائها بكل ما وسعها . وستضع الدولة حدا أدنى للحياة ، وتخلق عملا للمتعطلين دون ان تشترط ان يكون عملا يدر عليها الربح ، ولا تسمح بالزواج الا لمن يتقاضى حدا معلوما من الأجر . وللكهول العاجزين اعانات مالية ، وبيوت يأوون اليها .

أما المجانين والبله والسكران والمرضى بأمراض مستعصية فيعزلون عن جسم المجتمع عزلا ، كما يعزل عنه أولئك الذين اعتدوا على حرية الناس كالزورين ، واللصوص ، على ان الدولة ستسعى جهدها لاصلاح هؤلاء وعلاجهم ان كانوا في صدر شبابهم ، فتؤسس لهم مدارس وجامعات تقوم على أسس ملائمة لعقولهم وشذوذهم .

ولن تتردد اليوتوبيا الحديثة في قتل الاطفال ذوى العاهات والمرضى بأمراض فاتكة خبيثة ، لأن الدولة ستعد نفسها مسئولة عن سلامة المجتمع . . . وعندى ان الجريمة والمرض والبؤس هي مقياس فشل الدولة في واجبها ، لأن مجموع الجرائم هو جريمة المجتمع ، ومجموع أمراضه هو علة . . . على ان اليوتوبيا لن تلجأ الى عقوبة الاعدام في غير سن الطفولة .

لن يكون لواحد من أهل يوتوبيا حق الحياة بلا عمل . الا أن توفر لديه مال يتيح له ذلك ، فاذا لم يواصل الافراد مجهودهم فلا صحة ولا سعادة ، وليس القعود عن العمل في مصلحة المجتمع ، ولا هو مجلبة لسعادة الكسلان نفسه . . . أضف الى ذلك ان الدولة لن تسمح

بأموالها إلا لمن يخدم الجماعة من أفرادها فإن خلت يدا فرد من المال كان ذلك علامة واضحة على أنه متعطّل لا يعمل شيئاً .. وبناء على ذلك لا يجوز لشخص أن يتسول ، ولا لمحسن أن يحسن احسانا مضطربا لمن يتفق أن يلاقيهم في الطريق .

فان لم يجد الرجل ما يعمله قدم نفسه لموظف مسئول يعلم كيف يجد لهذا الرجل عملا في بلد قريب أو بعيد ، ذلك لأن شئون العمل في اليوتوبيا عليها رقابة دقيقة كما يراقب علماء الفلك ظواهر الاجرام السماوية فترسم المصورات في كل يوم لتبين أين يوجد العمل لمن يخلو منه .. على ان التربية في اليوتوبيا ستعنى بتدريب الناشئين على مهن مختلفة كي لا ينحصر الفرد في مهنة بعينها طوال عمره ، فان لم يجد العامل المهنة التي يؤثرها اختار غيرها مما تعلم في صباه ..

فان نشأت بطالة رغم هذا كله ، كان على الدولة أن تلجأ الى تصرف آخر .. فاختلال التوازن بين العمل والعمال يرجع الى أحد سببين : اما الى زيادة السكان زيادة أكبر من زيادة المشروعات الاقتصادية ، واما الى نقص المشروعات الاقتصادية بسبب انتهاء بعضها ، أو بسبب اختراع آلات توفر العمل .

فأما زيادة السكان فعلاجها في قوانين الزواج التي من شأنها ضبط عدد السكان بقدر الحاجة ، واما نقص المشروعات الاقتصادية ، فعلاجه تقليل ساعات العمل أو تشجيع قيام مشروعات جديدة ، أو أن تنشئ الدولة أعمالا كبرى لاصلاح الطرق ، والمنازل ، وما إليها .. لتستوعب العمال المتعطلين .

واذا كسب العامل الحد الأدنى من الاجور اقله الحق

في الفراغ . نعم هو حر في ذلك ما دام قد كسب لنفسه ما ينفق منه على عيشه والتأمين على صحته وادخر شيئاً لكهولته ، و شيئاً لتنشئة أبنائه وان العالم ليستفيد من هذه الفئة التي يتيح لها مالها شيئاً من الفراغ ، فمن الفراغ تتولد التجارب العلمية وتنشأ الفلسفة والفنون .

ننتقل الآن الى الأمومة ومشكلة الزواج . فالإوتوبيا الحديثة لا يكفيها أن تكون سليمة الأفراد مستمتعة بحياة سعيدة ، بل لابد أن ترسم لنفسها طريق التقدم والنهوض من حسن الى أحسن . أما اذا ترك الناس حبل التناسل على الغارب ، فيزدادون اشباعاً للفريزة المتحللة من القيود ، ويتدهورون بغير شك من سيئ الى أسوأ ، كما قال « مالتس » فأبلغ شرور الحياة هي زيادة السكان .

وطريقة الطبيعة في علاج هذه المشكلة هي أن تسمح للسكان بالزيادة حتى يبلغوا حداً أقصى وعندئذ يأخذ القوى في الفتك بالضعيف . وقد اصطنعت الانسانية طوال عصور التاريخ هذه الوسيلة الطبيعية في علاج زيادة السكان . فعدد من كان يصرعهم الجوع والمرض كان يتناسب تناسباً دقيقاً مع زيادة المواليد عن الحد المطلوب . تلك كانت الحال التي أملتها الطبيعة . فلا الطبيعة حورثها ولا الانسان أصلح فيها ، بحيث يتخلص من هذا الثمن الغالى الذي كان يدفعه مقابل رقيه وتقدمه .

ومجرد تحديد النسل لا يجدى في الأمر شيئاً . فبعض الأمم القديمة — كالصين في العصور السالفة — كان يلجأ اليه بواد البنات الصغار ، فكان ذلك يفلح

بعض الشيء في حصر ألوان الشقاء ، ولكنه كان يستتبع أيضا ركود الحياة وجمودها ، لأن التقدم يعتمد قبل كل شيء على التنافس وانتخاب الاصلح .

اننا نستطيع ان نمحو الألم والشقاء والموت بغير أن نحول دون التطور الجسماني والعقلي في مجراه الطبيعي، وذلك بمنع ولادة أولئك الذين يولدون للعجز والفشل والشقاء لو ترك حبل التناسل على الغارب . فان كانت الطبيعة التي « تلطخها الدماء نابا ومخلبا » تحفظ مستوى النوع وترقى به بقتل الضعيف أو تعذيبه ، فان المثل الاعلى للمدنية العلمية هو ان تمنع أولئك الضعفاء من الخروج الى الحياة ، فلا يكون ثمة قتل ، ولا تعذيب . ان التنازع على البقاء بين الحيوان وبين الشعوب الهمجية ، معناه بؤس الضعيف وموته حتى لا ينسل ويتكاثر ، أما الدولة المتمدنة ففي مقصورها أن تهيب العيش الرضى لكل كائن حتى على شرط أن تحرم التناسل على الضعيف .

ان الدولة الحديثة تتجه الى تحمل التبعة في تعليم الاطفال وتغذيتهم وتوفير أسباب السعادة لهم ، واذن فمن حقها أن تقرر أى الاطفال بفتح امامهم طريق الحياة .

وكان من رأى افلاطون ان تتولى الدولة تربية الاطفال بعد انتزاعهم من حجور أمهاتهم ساعة الميلاد ، وكان ذلك معقولا من رجل لم يعلم من البيولوجيا الا قليلا ، ولكنه لم يعد معقولا بعد « دارون » ، ومع ذلك فلا يزال كثير من الكتابين في علم الاجتماع يأخذون بهذا الرأى ، ويعدونه أبا عبقرى صالحا ، فيظهر ان هؤلاء الكتاب لم يدركوا مدى التفسير الذى طرأ على معنى

لفظتى « نوع » و « فرد » فى الخمسين السنة الاخيرة ،
فهم لا يعلمون ان حدود النوع قد فنيت وامحيت ، ولم
يعد سوى افراد يتميز كل فرد عن غيره ويكون وحدة
مستقلة . انهم لا يزالون يظنون ان الافراد نسخ ناقصة
لنوع مثالى افلاطونى كامل ، وان الغرض من التربية
هو تقريب الافراد من ذلك المثل الكامل ، كأن البيولوجيا
الحديثة لم تعلمهم ما للأفراد من شخصيات متميزة
بعضها عن بعض .

فالفردية هى محور التفكير عند المفكر الحديث ،
ووهم باطل أن يقال ان للدولة حق اختيار الافراد
الافراد لتحسين النوع ، ويكفى ههما لهذا الرأى أن
تذكر أن مستقبل الانسانية مرهون بالنوابغ الافذاذ مع
ان الدولة فى مجموعها تمقت النبوغ وتمثل أوساط
الناس . . فلنترك الافراد أحرارا يقررون شخصياتهم
وأول سبيل الى ذلك هو أن نفسح أمام عواطفهم مجال
النمو والازدهار ، ولعلنا نسمى وسيلة للتعبير عن عواطف
الفرد هى اختياره لشريكة حياته . فالفرد - لا الدولة
- هو الذى يقرر من يكون زوجه الذى يكمل حياته .

ولكن ان لم يكن من حق الدولة أن تفرض الزواج
على الافراد فرضاً ملزماً ، فمن واجبها بغير شك أن
تفرض القيود والحدود على تصرفات الافراد فى ذلك ،
من حق الدولة أن تلزم من يريد أن يضيف أطفالا الى
المجتمع بأن تكون له القدرة على تربيتهم وتنشئتهم ،
وأن يكون له حد أدنى من الكفاءة والصحة ، وأن يجاوز
سنا معينة ، وأن يكون خلوا من الامراض الموروثة وتعود
الاجرام .

ان اليوتوبيا تكاد لا تعرف الموت فى الأطفال الصغار،

لأن أبلغ مآسى الحياة أن يولد الطفل ليموت ، مع أنه جاء ليحيا . أما في هذا العالم الارضى ، فان خمس الاطفال على الاقل يموتون صغارا ، وعلة ذلك نقص في الطب والتمريض ، وضعف في نظمنا الاقتصادية ، وما يسودنا من فقر ومرض . ان تسعة وتسعين في كل مائة ممن يولدون يجب وجوبا محتوما أن يعيشوا حتى الشيخوخة .

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها قد أخطأت في كثرة القوانين التى ارتأت أن تفرض على شئون الزواج ، إما نحن فمذهبنا ألا تتدخل الدولة في ذلك إلا بالحد الأدنى ، لأن القانون ، فى رأينا ، واجبه أن يتيح أكثر ما يمكن من الحرية والابتكار .

ولست أرى أن تظل المرأة — كما هى دون الرجل فى حياتها الاقتصادية ، اذ لو بقيت كذلك لكان عبثا أن نطالب لها بالمساواة مع الرجل . . نعم ان طبيعة المرأة التى تخالف بها الرجل هى فى غير صالحها من الناحية الاقتصادية : فعدم قدرتها على المجهود الشاق ، وتعرضها للأمراض الخفيفة آنا بعد آن ، وضعفها فى الابتكار ، وعجزها عن التنظيم بالنسبة الى الرجل ، كل هذا يقف فى سبيل مساواتها الاقتصادية بالرجل ، ولكن المرأة قد استغلت هذا الضعف الطبيعى على نحو آخر ، وذلك انها اتخذته ذريعة لتشاطر الرجل مكاسبه .

على ان اليوتوبيا الحديثة قد غيرت من الموقف الاقتصادى بعض الشيء ، فاعترفت بأن الأمومة خدمة تؤديها المرأة للدولة ، وان من واجب الدولة بناء على ذلك أن تؤجرها أجورا تتناسب مع اتقان المرأة لوظيفتها تلك . اذ لا فرق بين أن يقوم فرد من الأمة بتنشئة

رجال الدولة وبين أن يقوم فرد آخر بالحراسة أو القضاء أو الحكم أو الوعظ الديني أو القاء المحاضرات في الجامعات .. ولذا ستفرض الدولة الحديثة للأم أجرا تضيفه إلى أجر زوجها ، على أن يزداد ذلك الراتب بزيادة الإبناء ، وذلك على شرط أن يكون أبناؤها في صحة عقلية وجسمانية مما يدل على قيامها بواجبها ، على نحو مرض ، وكلما ازداد الاطفال صحة وقوة زاد أجر الأمومة لأن الأمومة الصالحة في اليوتوبيا الحديثة مهنة كسائر المهن ، يعلو أجرها كلما زاد اتقانها .

ولو اصطنعنا ذلك في أرضنا لانمحي عناء الارامل ، وشقاء الاوانس اللاتي يحول فقرهن دون الزواج ، وتعس الزوجات اللاتي يضبطن النسل لفقر أزواجهن . ولضمنت الدولة أن ينشأ الاطفال نشأة صالحة بغض النظر عن حالة آبائهم المالية ، فلن يؤثر في حسن تربيتهم أن يموت الزوج أو أن يسوء سلوكه أو حظه .

أضف إلى ذلك أن الدولة إذا حرمت على الوالدين استغلال أبنائهم ، وأراحت الكهول من اعتمادهم على أولادهم ، قل المدافع إلى النسل الكثير ، واكتفى الآباء بابن أو اثنين لاشباع غريزة الأبوة وكفى ، ونتيجة ذلك ألا يزيد السكان زيادة فاحشة ولكن ذلك كله مرهون بشيء واحد ، وهو أن تلقى تبعة الاطفال على المجتمع .

والخلاصة أن اليوتوبيا الحديثة تعد الحمل والولادة والتربية خدمة للدولة لا لفرد معين .. وذلك هو الأساس الجديد الذي يقوم عليه تنظيم الأمومة .

ولما كان الزواج ركنا هاما من أركان الدولة ، لأنه وسيلة النسل ، ولأنه سبيل الحياة المنزلية الهادئة ، لم تترك اليوتوبيا أمره فوضى ، فاشتترطت له شروطا

لايجوز زواج بغيرها .. فدخل الزوج يجب ألا يقل عن حد مفروض ، وسن الزوجين لايحوز أن تقل عن واحد وعشرين للمرأة ، وست وعشرين للرجل ، وغير ذلك مما يضمن الصحة والقوة للجيل الناشئ الجديد وأما علاقة المرأة بالرجل ففيهما رأيان : رأى ذهب اليه افلاطون ومن ورائه أوروبا بأسرها ، وهو أن تكون المرأة مساوية للرجل في كل شيء ، وينبع ذلك أن تساويه في أعماله من حكم وقتال وتعليم وغير ذلك . ورأى أخذ به أرسطو ومن ورائه الدول الشرقية ، وهو أن المرأة أخط من الرجل ، ولها عمل خاص بها يختلف عن عمل الرجل ، فالها الدار وشئونها ، وله أعمال الحياة الخارجية .. ونحن نفضل لليوتوبيا الحديثة الراى الاول .

وأهل اليوتوبيا الحديثة ينقسمون أربع طبقات : فئة المبتكرين ، وفئة العاديين الممتازين ، وثالثة من الاغنياء ورابعة ممن تدهورت فيهم الاخلاق .

أما المبتكرون فأول ما يميزهم خروجهم على المؤلف المعروف اذ هم يشقون لأنفسهم طريقا في الحياة ينشئون انشاء ، ومن هؤلاء أصحاب الفن المبدعون ورجال العلم الخالقون .

وأما العاديون المتوازن فهم لا يشذون عن المؤلف ولكنهم بارعون في التصرف فيه ، أنهم لا يبتكرون شيئا ولكنهم يحسنون استغلال الموجود ، وأبرز ما يميز هؤلاء نشاطهم وذكاءهم ، ومن أمثلتهم القاضى القدير ، والمدير الكفاء ، والممثل البارع ، والسياسى الداهية ، ومن الى هؤلاء ... ومن هذه الطبقة العادية الممتازة تتألف أركان المجتمع في العالم الارضى .. أما أهل

يوتوبيا فعمادهم الطبقة الاولى .

واما ثلاثة الطوائف فبالاغبياء الذين أصيبوا بضعف الخيال واضطراب الفكر ، وهؤلاء عاجزون مقلدون بحاجة الى الادارة والارشاد .

واما ذوو الاخلاق الوضيعة فهم اخلاط من الطبقات الثلاث التى ذكرناها ، ويميزهم انصراف همهم الى مصالحهم الخاصة دون صالح المجتمع .

وبديهي أن أرفع طبقات المجتمع شأنًا هم المبتكرون المنشئون ، بل يستحيل أن يكون مجتمع بغيرهم .. لهذا ترى الدولة هناك لا تدخر وسعًا فى استخراج هؤلاء من بين القوم ، بأن تتيح الفرصة للأفراد جميعًا على السواء ، الرجال منهم والنساء ، ليظهر نبوغ النابغين .

وقد يجهل بى أن أسرد سردا سريعا بعض ما تحرمه الدولة فى اليوتوبيا الحديثة . فهم يحرمون أكل اللحم ، لأنهم يمتنون أن يقيموا المذابح ، وأن يمضفوا فى أفواههم الثيران والخنازير ... ويمنعون الربا لئلا يثرى رجل على حساب آخر .. ولا مراهنه هنالك ، ولا مقامرة ، ولا يجيزون ألعاب المنافسة ، ولا يفسرون الطهر بالعزوبة اذ لا تناقض عندهم بين الزواج وطهارة النفس ، ويحذرون من الاسراف فى الشهوات والانغماس فى الترف ، على ألا يحرم أحد نفسه مما يشبع فيه الشهوة اشباعا متزنا معقولا ، فكل انسان له أن يجلس الى مائدة اللذائذ فيأكل منها ما طاب له على أن يفادرها فى غير امتلاء وتخمّة .. واللبس الفاخر مرذول عند السيدات ، لأنه نكسة الى الوحشية ، ويؤثرون أن يلبس الناس جميعا ثيابا بعينها .

وأما الدين في اليوتوبيا الحديثة فأهم ما يذكر عنه انه عندهم محصور في الفرد ، أى انه صلة بين الانسان وربّه ، وينعكس الوضع لو جعلناه علاقة بين الانسان والانسان ، ومن البلاهة أن يوسط الانسان قسيما ليكون حلقة اتصال بين نفسه وبين الله . الا اذا جاز لنا أن نقول ان القسيس لازم لوصل قلوب المحبين .

وأهل اليوتوبيا يخصصون سبعة أيام من كل عام يعتزل فيها كل انسان عن كل انسان .. فيضرب في أرجاء الارض لا يحمل كتابا ولا سلاحا ، وينام على فراش غليظ تحت قبة السماء ، والغاية من هذا بث الشجاعة في النفوس .. وهم في هذه الرحلات يحبون أن يرتادوا الصحراوات الافريقية والاسيوية . والغابات المنعزلة وسهول المناطق المتجمدة والجزر الموحشة ، وبهذا يستطيع الانسان أن يخلى بين نفسه وبين الطبيعة

ونريد أن نختم الحديث برأينا في تقسيم العالم الى أجناس . فنفس الانسان بطبيعتها تتذبذب بين طرفين : رغبة في التفرد ، وخوف من العزلة . فكل فرد يريد أن يحقق لنفسه شخصية واضحة متميزة عن سائر الافراد ، ولكنه في الوقت نفسه ينفر من انفصاله عن الناس ، بل هو على تقيض ذلك يحب أن ينفمى في جماعة يكون عضوا فيها .. شأن الفرد في ذلك كشأنه في اختيار ثيابه ، فهو يميل الى الاخذ « بالموضة » السائدة ليكون مع الناس على نمط واحد ، ولكنه يحب أن يشتري ثيابه « جاهزة » ويفضل أن « يفصل » الثوب على جسمه دون سائر الاجسام .

والتوسيع في ذلك الميل الطبيعى معناه ان الانسان يحب وطنه الخاص ، ولكنه يميل الى أن يكون ذلك

الوطن جزءا من العالم .

غير ان رقى الوسائل المادية وتقدم طرق المواصلات في القرن الاخير ، قد حطم القواصل بين الاوطان، ومكن الناس من نشر الثقافة العالمية بينهم ، وذلك ما بشرت به المسيحية والاسلام في العصور الوسطى . . وكانت أولى نتائج ذلك ان اتسعت المثل العليا في السياسة ، وأخذ الناس يبحثون عن أسس سياسية جديدة غير الوطنية ، كاتحاد الجنس أو وحدة اللغة ، وأخيرا ولت الإنسانية وجهها شطر الوحدة العالمية .

ولكن حدثت نكسة في القرن التاسع عشر ، وعودة الى القول بوحدة الجنس ، وكان ذلك بسبب الانقلاب العلمى الذى شهدته ذلك القرن . فما كادت تذيع نظرية دارون في التطور ، حتى فسر ها الناس بضرورة أن يكون في العالم طائفة مختلفة من الاجناس المتنازعة . وكان الداعين الى ذلك قد نسوا - حين يزهو باجناسهم على سائر اجناس البشر - ان المدنية ما استقرت في طائفة دون طائفة ، بل أخذت تنتقل على مر الدهور من هذه الفئة الى تلك . فترى الشعوب التى تنقسم ذروة السياسة في هذا العصر تتوهم انها من جنس ممتاز ، وتظن ان المصريين واليونان والصينيين والهنود أخس منهم منزلة ، مع أن هذه كانت تسيطر في العهود الماضية بمثل ما تسيطر به الشعوب القوية اليوم .

أما رأى الصواب فهو ان حديث الاجناس حديث خرافة . وان الناس أخلاط من هذا وذاك . . . وافرض جدلا ان الصينى مختلف عن الانجليزى - مثلا - في جسمه وفي نفسيته ، فهل يؤدي هذا الى استحالة المساواة بينهما في دولة عالمية ؟ . ان الناس أفراد ،

وليسوا اجناسا ، ففرد يمتاز عن فرد . ولا يجوز القول ان جنسا يمتاز عن جنس .. فان رأيت الناس على خلاف فاعلم انه اختلاف ظاهري في اللغة ، واللون ، والحركات ، وما الى ذلك ، مما لا يتعذر معه الاندماج والتوحيد .. كنت اتحدث - ونحن في كوكب اليوتوبيا

- الى صديقي بذلك ، فدهش وقال : ولكن هل تحب ان تزوج ابنتك من صيني أو زنجي ؟.. فقلت له : انك تزدرى هؤلاء اليوم لقذارتهم وجهلهم ، ولكن هلا وسعت من خيالك قليلا لتفهم الفرق بين الصفات المكسوبة والطبائع الموهوبة .. اذا رأيت بعض الانجليز يدمنون في شراب الخمر ، تجيز لنفسك ان تعمم هذا الحكم على الشعب الانجليزي بأسره ؟.. وان لم تجز لنفسك هذا الوثب في الحكم هنا ، فاماذا تستحله في أهل الصين والزنوج ، فتظنهم جميعا من صنف أخطأ

ان تألف الثقافات والاجناس في عالم واحد هو أمل الانسانية المنشود ، الذي لا بد ان تتوفر على تحقيقه الجهود .. ان الأمم تستطيع ان تلقى السلاح وتقف الحروب ، لو أرادت !

لنحطم فواصل اللغة لتسود بين الناس لغة واحدة. ولنقوض ما هنالك من حوائل اقتصادية تباعد بين الأمم .. ليكون في العالم قانون واحد ، وأدب واحد... وأمل واحد !

وماذا يمنع الانسانية ان تأخذ بهذا الفردوس الارضي؟ انها بلادة الذهن التي لا تبررها الاسباب !

فهرس

٧	تصدير
٩	مقدمة
١٣	يوتوبيا
٢٢	الكتاب الأول
٣٩	الكتاب الثاني
٤٢	رؤساء المدينة
٤٤	العلوم والصناعات والأعمال
٤٨	اتصال الأفراد
٥٠	السفر
٥٦	العبيد والمرضى والعلاج
٥٩	الحرب
٦١	الدين
٦٩	ارون
١٠١	أبناء الأرض التي لا وجود لها
١١٩	يوتوبيا حديثة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ١٥ ب. رقم ٤١٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

انجلترا :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7408
Sao Paulo, BRASIL

البرازيل :

هذا الكتاب



الدكتور زكى نجيب محمود من قادة الفكر فى عالمنا العربى اليوم ،
وقد أمتع عالم العرب خلال الخمسين سنة الماضية بفيض من المؤلفات
التي ساهمت بأكثر نصيب فى نهضة الفكر فى أدبنا العربى المعاصر ،
ولسنوات طويلة قاد سفينة الفكر فى مجلة « الفكر المعاصر » هذا
بالإضافة الى استاذيته فى الفلسفة ، وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه
فى جامعتى القاهرة والكويت وجامعات عربية كثيرة يتولاه كاس
الاستاذية فى أقسام الفلسفة فى معظم جامعات العالم العربى
هذا الكتاب من مؤلفاته المبكرة ، فيه نرى زكى نجيب
فى طريقه نحو زكى نجيب محمود العلامة الفيلسوف بخطوا
أنه يقود الشباب فيه خلال كتب كثيرة قرأها وأوحت اليه
كما أوحت للملايين الذين قرأوها قبله ومعه . نحن هنا
المدن الفاضلة والتوجيهات والكتب الخالدة التى صنعت
الحديث . وهو هنا يتحدث فى هدوء العالم وحماس الش
علينا درسا جديدا من دروس التكوين الفكرى السليم .

١٥ قرشا

933
2
215
977
Bibliotheca Alexandrina



0696130